مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ
(١)

النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه

في
سورة الأحزاب

تأليف
عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص. ب.: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص. ب.: ١١٣/٦٥٠١.

النبي وزوجته

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد إمام المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن شمائل نبيِّنا ﷺ وخصائصه التي خصّه الله سبحانه بها تكريماً وتشريفاً، كثيرة وكبيرة لا يمكن لأحد أن يحصرها بعدد، ولا أن يحيط بها في كتاب.

وثَمَّة جوانب كثيرة من كمالاته ﷺ لم يتناولها العلماء والمؤلفون الذين تحدَّثُوا عن شمائله وألَّفوا كتباً في خصائصه ﷺ، فلا يعلم عظيمَ قدره عليه الصلاة والسلام حقَّ العلم إلَّا ربّه سبحانه وتعالىٰ، الذي أدّبه فأحسن تأديبه، وجمَّله بأعلى الصفات ورفعه إلى أعلى المقامات، وخصَّه بأسمى الغايات، وشرَّفه بأعظم أمانه، وحمَّله أكمل رسالة، وجعل ـ سبحانه ـ أخلاق النبي ﷺ العالية وصفاته الكاملة دليلاً يدلّ على صدق رسالته وصحة نبوّته، ولهذا فإن معرفته عليه الصلاة والسلام تستوجب الإيمان برسالته، وتستلزم التصديق بنبوته. قال جلّ وعلا في معرِض الإنكار على الكافرين المُعرِضين عن الإيمان به عليه الصلاة والسلام: ﴿ أم لم يعرفوا رسولَهم فهم له منكرون ﴾ ٦٩ المؤمنون.

فما أحاط بكمالاته ﷺ وخصائصه وشمائله إلا كتاب ربِّ العالمين الذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة، وعلَّمك ما لم تكن تعلم، وكان فضلُ الله عليك عظيماً ﴾ الآية ١١٣ سورة النساء.

وإنَّ في كتاب الله تعالى لَسوراً كاملة، خصَّص الله سبحانه أكثر آياتها للحديث عن النبي ﷺ، وتكريم الله سبحانه له، وبيان عظيم فضله جلَّ وعلا

عليه ﷺ، ليعرف الناس قدره عند ربه، فيؤمنوا برسالته، ويتمسكوا بهديه وسنّته، ويسعدوا بمحبته في الدنيا والآخرة.

وإنَّ المسلمين في أشدّ الحاجة إلى معرفة النبي ﷺ من خلال آيات التنزيل الحكيم، لأنَّهم في أشد الحاجة إلى هَدْيه وسنَّته، ولا خَلاَص لهم ممَّا يعانون من اختلاف وتمزّق وضعف وتفرُّق إلا بالعودة إلى سنّته وتطبيق شريعته عليه الصلاة والسلام.

وإنَّ في هذا الكتاب دراسة لبعض ما في سورة الأحزاب من تكريم الله سبحانه لنبيّه ﷺ، وبعض ما خصَّه الله سبحانه من خصائص، وتكريم أزواجه أُمّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ، وتأديب الله سبحانه لهنَّ ليكنَّ جديرات بمكانتهنّ في بيت النبوّة وتشرّفهنّ بزواج النبي ﷺ، منهنَّ رضي الله عنهنَّ وأرضاهنَّ، ولا بدَّ لكل امرأة مسلمة من التأسِّي بهنَّ رضي الله عنهنَّ، والتـأدب بالآداب والأخلاق التي أدّبهنَّ الله بها، حتى تكون جديرة بالإسلام والانتساب إلى خير أُمة أخرجها الله للناس، أُمة النبي ﷺ.

وقد جعلتُ الكتاب في فصلين: الفصل الأول منهما للنبي ﷺ، والفصل الثاني لأزواجه أُمّهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهنّ. وقد اعتمدت في دراستي هذه على أوثق كتب التفسير وأشهرها، وعلى صحيح السنّة النبوية الشريفة، وإنّني لأسأل الله تبارك وتعالى أن يزيدَني والمسلمين معرفة بقدره عليه الصلاة والسلام، ومحبة له ﷺ بعد أن أكرمني ربّي بالسكنى في مدينته ويسّر لي الصلاة في مسجده الشريف والسلام عليه ﷺ من قريب.

وأسأله سبحانه أن يُحسِن ختامي فأموت على ملّته، وأُحشر يوم القيامة مع أُمته، وتحت لوائه، وأرِد على حوضه وأشرب منه شربة لا أظمأ بعدها أبداً، وأسعد في عَرَصات القيامة بشفاعته. اللهمّ آمين. وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

المدينة المنوَّرة في ٢٥ شوال ١٤٠٤

الفقير إلى الله تعالى
عبد الحميد محمود طهماز
نزيل المدينة المنورة

الفَصْل الأوَّل

النَّبيُّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تمهيد

التكليف والتشريف

الأمانة والإنسان

التقوىٰ والتوكّل واتّباع الوحي

النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم:

عموم ولاية النبي ﷺ وشمولها

التسليم لحكمه ﷺ

طاعته ﷺ

محبته ﷺ

الصلاة والسلام عليه ﷺ

الحذر من إيذاء النبي ﷺ

الأُسوة الحسنة

نبي الله ﷺ

رسول الله ﷺ

خاتم النبيين ﷺ

النبي الشاهد ﷺ

النبي المبشّر ﷺ

النبي النذير ﷺ

الدّاعي إلى الله بإذنه ﷺ

السراج المنير ﷺ

تمهيد

النبي ﷺ هو الموضوع الأساسي لسورة الأحزاب، والمتدبِّر لسوَر القرآن الكريم لا بدّ أن يدرك أن موضوع كل سورة من سور القرآن الكريم يذكر في الآيات الأولى منها، فإذا قرأت الآيات الأولى من سورة الأحزاب تصل بعون الله سبحانه إلى أنَّ شخصية النبي ﷺ والجانب الاجتماعي من حياته عليه الصلاة والسلام، هو الموضوع الأساسي لسورة الأحزاب، ففي فلك هذا الموضوع تدور آيات السورة من أولها حتى آخرها.

بدأت السورة بمخاطبة النبي ﷺ بهذا الخطاب: ﴿ يا أيُّها النبي ﴾ والجدير بالذكر أنَّ الله سبحانه خاطب النبي ﷺ بهذا الخطاب خمس مرات في سورة الأحزاب في الآيات: ١ ـ ٢٨ ـ ٤٥ ـ ٥٠ ـ ٥٩.

ولعلَّ من المناسب هنا أن أضع أمام القارىء الكريم إحصاءً لعدد المرَّات التي ذُكِر فيها ﷺ في سورة الأحزاب:

محمد : ذكر مرة واحدة في الآية ٤٠.

النبي : ذكر خمس عشرة مرة، في الآيات: ١ ـ ٦ ـ ١٣ ـ ٢٨ ـ ٣٠ ـ ٣٢ ـ ٣٨ ـ ٤٥ ـ ٥٠ ـ ٥٣ ـ ٥٦ ـ ٥٩.

رسول : ذكر ثلاث عشرة مرة في الآيات: ١٢ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٣١ ـ ٣٣ ـ ٣٦ ـ ٤٠ ـ ٥٣ ـ ٥٨ ـ ٦٦ ـ ٧١.

خاتم النبيين : ذكر مرة واحدة في الآية ٤٠.

شاهد : ذكر مرة واحدة في الآية ٤٥.

مبشِّر : ذكر مرة واحدة في الآية ٤٥.
نذير : ذكر مرة واحدة في الآية ٤٥.
داعي إلى الله : ذكر مرة واحدة في الآية ٤٦.
سراج منير : ذكر مرة واحدة في الآية ٤٦.

علماً أن عدد كلمات سورة الأحزاب ألفٌ ومائتان وثمانون كلمة، وعدد حروفها خمسة آلاف وسعمائة وتسعون حرفاً كما ذكر الخازن في تفسيره.

وقد ركَّزت السورة على الجانب الاجتماعي من حياته ﷺ، مع أزواجه، وفي بيته، فأجملت أولاً، ثم فصَّلت، فعرضت كثيراً من حياته ﷺ الشخصية، ممَّا يُعدُّ من خصائص حياة الإنسان، ولكنه عليه الصلاة والسلام النبي الأُسوة الحسنة والقُدوة الطيبة للمؤمنين كما قال عزّ وجلّ: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسْوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾[1]، فحياته ﷺ العامّة والخاصّة لربِّه ولدينه.

ولهذا كان أزواج النبي ﷺ اللواتي شاركنَه حياته الخاصّة به ﷺ، وشاهدنَها من قريب، لا يكتمن شيئاً منها ولا يخفينَه، فإذا ما سُئِلت إحداهنّ عن أيِّ جانب من جوانب حياة النبي ﷺ الشخصية، تُجيب السائل كائناً مَنْ كان، بكل صراحة ووضوح. ممَّا يدلّ على تقديرهنّ رضي الله عنهنّ لمسؤوليتهنّ، فحياتهنّ مع رسول الله ﷺ ليست ملكاً لهنَّ، إنما هي مِلْكٌ للإسلام والمسلمين. وسأُبيِّن في هذا الفصل بعض جوانب حياته ﷺ الاجتماعية من خلال آيات سورة الأحزاب، مع ما فيها من التشريف والتكريم والمنازل الرفيعة التي خصَّه الله سبحانه وتعالى بها.

١

(١) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

التَّكْليفُ وَالتَّشْريفُ

بـدأت سورة الأحـزاب بمخاطبـة ربّ العزَّة ذي الجـلال والإكرام للنبي ﷺ بهذا الخطاب:

﴿ يا أيُّها النبيُّ اتَّقِ الله ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين، إنَّ الله كان عليماً حكيماً (١) واتَّبِعْ ما يُوحى إليك من ربِّك إنَّ الله كان بما تعملون خبيراً (٢) وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً (٣) ﴾.

لا بدّ أن أُشير قبل كل شيء إلى ما في نداء الله سبحانه للنبي ﷺ بعنوان النبوّة من تكريم الله سبحانه له وتشريفه، وتنبيه على سموِّ مكانته عليه الصلاة والسلام، فلم يقل سبحانه: يا محمد، كما قال لغيره من الأنبياء: يا موسى، يا عيسى، يا إبراهيم، يا آدم. بل كرَّمه سبحانه وربّا بفضله بندائه بصفة النبوّة التي كرّمه الله سبحانه بها.

فإن قلتَ: إن لم يوقِع اسمه في النداء، فقد أوقعه في الإخبار في قوله سبحانه: ﴿ محمد رسول الله ﴾ ﴿ وما محمد إلا رسول قد خَلَت من قبله الرسل ﴾ قلتُ: ذلك لتعليم الناس بأنه رسول الله، وتلقين لهم أنّ يسمُّوه بذلك[1].

وهو الأدب الذي أدَّب الله سبحانه به المؤمنين ألَّا ينادوا النبي ﷺ إذا أرادوا تكليمه باسمه ﷺ الذي سُمي به، بل عليهم أن ينادوه بصفة النبوّة

(١) انظر الكشاف للزمخشري.

والرسالة التي شرّفه الله سبحانه بها، احتراماً له ﷺ وتعظيماً، فقال جلّ شأنه: ﴿ لا تجعلوا دُعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾[1].

قال ابن عباس: (كانوا يقولون يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك إعظاماً لنبيّه ﷺ، قال: فقولوا: يا نبي الله يا رسول الله)[2].

ولا يخفى على القارىء المتدبِّر لهذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى كلّف النبي ﷺ بثلاثة أمور هي:

التقوىٰ، اتّباع الوحي، التوكل على الله.

ونهاه سبحانه عن أمر واحد هو: طاعة الكفار والمنافقين.

والتكليف تشريف، وكلما كان التكليف كبيراً وعظيماً كان التشريف كبيراً وعظيماً، قال الشاعر:

على قَدْر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدْر الكِرام المكارمُ

وقد كان تكليف النبي ﷺ بحمل رسالة الإسلام إلى جميع الأنام أعظم تكليف، ممَّا يدلّ على ما له عليه الصلاة والسلام عند ربه سبحانه من عظيم المكانة ورفيع المنزلة، إذ اختاره ربُّه واصطفاه لحمل أعظم رسالة وأكبر أمانة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ إنَّا سنُلْقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾[3].

الأمانة والإنسان:

وغير وارد في حقِّه ﷺ ما يمكن أن يتبادر إلى ذهن قارىء قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إنّا عرضنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبال فأبَيْنَ أن يحملنَها، وأشفقنَ منها، وحملها الإنسان إنَّه كان ظلوماً جهولاً ﴾[4] والأمانة

---

(١) الآية ٦٣ من سورة النور.
(٢) تفسير ابن كثير.
(٣) الآية ٥ من سورة المزّمّل.
(٤) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

في الآية هي التكليف والمسؤولية، كما يقول جمهور المفسّرين.

وليس كل مكلّف متصفاً بصفة الظلم والجهل، إنما الذي يتّصف بالظلم والجهل هو الذي لم يؤدِّ حقّ الأمانة رعايةً وحفظاً، وقياماً بحقوقها، فقوله تعالى: ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ أي الإنسان الذي لا يحفظ حقّ الأمانة كان ظلوماً جهولاً، ويؤكّد هذا المعنى أن الله سبحانه قال بعد ذلك: ﴿ ليعذبَ الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوبَ الله على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[1]، فدلّت الآية على انقسام الإنسان إلى معذَّب ومرحوم، فالإنسان المعذَّب هو الظلوم الجهول، وظلمه وجهله سبب عذابه وشقائه، وأما المرحوم بفضل الله ورحمته، فقد نفى الله سبحانه عنه الظلم والجهل بقوله الكريم: ﴿ الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[2].

فآية الأمانة في سورة الأحزاب، وإن كانت عامةً في اللفظ، إنما هي خاصّة في المعنى المُراد منها، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لهذا، مثل قوله تعالى: ﴿ قُتل الإنسان ما أكفره ﴾[3].

ومعنى ﴿ قُتل ﴾ لُعن، ولا شك أنها لا تعني كل إنسان إنما تعني الإنسان الكافر الجاحد.

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿ اعلموا إنَّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهْوٌ وزينةٌ، وتفاخرٌ بينكم، وتكاثرٌ في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفارَ نباتُه، ثم يهيج فتراه مُصْفَراً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدّنيا إلا متاع الغرور ﴾[4].

ولا شك أن حياة الأنبياء والمرسلين ليست لعباً ولهواً وزينة، وكذلك حياة الصدِّيقين والشهداء والصالحين، فالآية عامّة في لفظها ولكنها خاصّة في

(١) الآية ٧٣ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ١٧ من سورة عبس.
(٤) الآية ٣٠ من سورة الحديد.

معناها، فالحياة لعب ولهو وزينة لمن اتخذها للعب واللهو والزينة، وجعل همّه فيها التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد. قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: (الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنِعمَ المتاع ونِعمَ الوسيلة)[1].

(١) انظر صفوة التفاسير ٣/٣٢٨.

التقوى والتوكل واتباع الوحي

النبي ﷺ أتقى الناس لربه عزّ وجلّ، وأعظمهم توكلاً عليه سبحانه، وأكثرهم اتباعاً لما أنزل الله سبحانه عليه، قال ﷺ للنفر الثلاثة الذين قال أحدهم: أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً، وقال الثالث: أصلي الليل ولا أنام.

«أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأُصلّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»[1]. وفي رواية ثانية قال ﷺ: «ما بالُ أقوام يتنزّهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدّهم له خشيةً»[2].

وكان ﷺ متوكلاً على الله سبحانه في جميع أحواله وأعماله، وهذا ظاهر في حياته عليه الصلاة والسلام، وخاصة في أثناء الشدائد والصِعاب، انظر إلى توكله ﷺ وثباته وثقته بربه عندما كان في الغار مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه، والمشركون يحيطون بالغار من كل جانب ﴿ إلاَّ تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثانيَ اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزنْ إنَّ الله معنا، فأنزل الله سكينتَه عليه، وأيَّده بجنود لم تَرَوْها، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، والله عزيز حكيم ﴾[3].

---

(١) أخرجه الشيخان والنسائي من حديث أنس.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث عائشة.

(٣) الآية ٤٠ من سورة التوبة.

كان ﷺ في أول أمره يُحرس من قبل بعض أصحابه حتى أنزل الله سبحانه عليه قوله الكريم: ﴿ يا أيُّها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربِّك، وإن لم تفعل فما بَلَّغت رسالته والله يَعْصِمُك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾[1]، فقال النبي ﷺ: «يا أيُّها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عزّ وجلّ»[2].

وحدَّث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلَّق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرَّق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، فقال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف، فاستيقظت، وهو قائم على رأسي، والسيف في يده صَلْتاً، فقال: مَن يمنعك منّي؟ قلت: (الله) فشام السيف ـ أي أغمده ـ وها هو ذا جالس»[3].

وهو ﷺ أكثر الناس تمسكاً بالوحي واتّباعاً له كما قال عزّ وجلّ: ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيِّناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآن غير هذا أو بدِّلْه، قل ما يكون لي أن أُبدِّله من تلقاء نفسي، إن أتَّبع إلا ما يُوحى إليّ، إني أخاف إن عصيت ربِّي عذاب يوم عظيم ﴾[4].

وكيف لا يكون ﷺ متّبعاً لوحي الله سبحانه وتعالى أشدّ اتّباع، ومتمسكاً به أعظم تمسك، وقد أخذ الله سبحانه منه ميثاقاً وعهداً مؤكداً ومغلَّظاً على ذلك، كما أخذ من جميع المُرسَلين قبله ﷺ، قال جلّ وعلا في سورة الأحزاب: ﴿ وإذا أخذنا من النبيِّين ميثاقهم، ومنك، ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً، ليسأل الصادقين عن صدقهم، وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً ﴾[5].

---

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة.
(٢) انظر تفسير ابن كثير للآية..
(٣) أخرجه الشيخان.
(٤) الآية ١٥ من سورة يونس.
(٥) الآيتان ٧ و٨ من سورة الأحزاب.

وتأمل تكريم الله سبحانه لنبيّه عليه الصلاة والسلام في تقديمه بالذكر على جمع من ذكرت الآية من أُولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، مع أنهم متقدمون عليه في الزمان، فهو ﷺ خاتمهم وأشرفهم.

ويرى بعضُهم أنّ الله سبحانه قدَّم النبي ﷺ بالذكر لأنه سبحانه أكرمه بالنبوّة في عالم الأرواح قبل الأنبياء، فبنبوّته عليه الصلاة والسلام افتتحت النبوة في عالم الأرواح، وبنبوّته عليه الصلاة والسلام ختمت في عالم الأجساد والأشباح، ويستدلون على ذلك بما روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوّة؟ قال: «وآدمُ بين الروح والجسد»[1].

ذكر هذا الحديث الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية، وقال: وفي الباب أحاديث قد صحَّ بعضها[2].

بعد هذا لا بدَّ أن يسأل سائل فيقول: ما وجه أمر الله للنبي ﷺ بالتقوى واتّباع الوحي والتوكل؛ والأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم الاشتغال به، فلا يُقال للساكت اسكت، ولا للجالس اجلس؟!!!

أجاب أكثر علماء التفسير عن هذا، بأن المُراد من الأمر بالتقوى والتوكل على الله واتّباع الوحي: الثبات عليها والازدياد منها، لأن لهذه المأمورات باباً واسعاً لا يُنال مداه، كمال قال العلاَّمة أبو السعود رحمه الله في تفسيره. وقال النسفي رحمه الله في تفسيره: («اتق الله» أي اثبت على تقوى الله، ودُمْ عليه، وازدَدْ منه، فهو باب لا يُدرك مداه).

وذكر الفخر الرازي رحمه الله هذا في تفسيره الكبير، وزاد عليه معنىً آخر لطيفاً فقال: الملك يُتقَى من عباده على ثلاثة أوجه: بعضهم يخاف من عقابه، وبعضهم يخاف من قطع ثوابه، وثالث يخاف من احتجابه،

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أبو نُعيم والبيهقي والحاكم وصحَّحه.
(٢) انظر فتح القدير للشوكاني.

والنبي ﷺ لم يؤمر بالتقوى بالمعنى بالأول ولا بالمعنى الثاني، فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور مع الله سبحانه، والنبي ﷺ في كل لحظة يزداد علمه ومرتبته، حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة لما هو فيه تركاً للأفضل، فكان له في كل ساعة تقوى متجدِّدة، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّه ليُغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم مائة مرة»[1].

ولا شك أنَّ للنبي ﷺ في كل وقت تقوى متجددة، لأنه عليه الصلاة والسلام يزداد علماً ومعرفة بما يفيضه الله سبحانه عليه، وهو سبحانه الذي علَّم نبيّه ﷺ أن يقول: ﴿ وقل ربِّ زِدني علماً ﴾[2]، وفي زيادة العلم زيادة في الرِفعة والمرتبة كما قال سبحانه: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير ﴾[3].

ويمكن أن نقول أيضاً إنَّ المراد من أمر النبي ﷺ بالتقوى واتّباع الوحي والتوكّل: أمته عليه الصلاة والسلام، فالخطاب للنبي ﷺ، والمراد منه أمته.

ذكر هذا الخازن في تفسيره، إلَّا أنَّه ذكره في صيغة تدل على أنه يراه قولاً ضعيفاً، فقد قال رحمه الله: (اتقِ الله) أي دُمْ على التقوى، وقيل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته.

ولكني أرى هذا القول وجيهاً وسديداً، ويؤكده قوله سبحانه في ختام الآية الثانية: ﴿ إنَّ الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ فصَدْر الآية خطاب للنبي ﷺ، وآخرها خطاب لأمته عليه الصلاة والسلام.

ولهذا أمثلة ونظائر كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ يا أيّها النبيُّ إذا طلقتم النساء فطلقوهُنَّ لعدتهنَّ، وأحصوا العدّة، واتقوا الله ربَّكم... ﴾[4].

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود، ومعنى يغان: يغطي ويغشي.

(٢) الآية ١٤ من سورة طه.

(٣) الآية ١١ من سورة المجادلة.

(٤) الآية ١ من سورة الطلاق.

وقد يقول قائل: ما فائدة توجيه الخطاب للنبي ﷺ إذا كان المراد به أمته؟

وأقول: إن فيه فوائدَ كثيرة: منها تشريف النبي ﷺ، وتعريف الناس بأهمية التكليف، فإذا كان النبي ﷺ مأموراً بالتقوى واتّباع الوحي والتوكّل، وهو إمام المتّقين وسيد المتوكلين والمُبَلِّغ لوحي الله إلى العالمين، فالأمر في حقِّ غيره آكد وأعظم.

وإن الصالحين أكثر إدراكاً لهذه المعاني من غيرهم، إنهم يتذوقونها قبل غيرهم بسبب صفاء قلوبهم ورقة نفوسهم وشفافية أرواحهم.

أذكر على سبيل المثال أني كنت مرة مع سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى في سيارة خارج البلد، وكان مذياع السيارة يبثّ قراءة قارىء يقرأ من سورة الإسراء، ولما قرأ قوله تعالى: ﴿ ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً. إذاً لأذَقْناكَ ضعْفَ الحياة وضِعْف الممات، ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾[1]، انفجر الشيخ رحمه الله باكياً بكاءً شديداً ما رأيته يبكي مثله أبداً، وهو يقول: إذا كان حال النبي ﷺ مع الله سبحانه هكذا فكيف يكون حالنا؟!!.

ورحم الله ابن كثير، فقد قال في تفسير هذه الآية: ﴿ اتقِ الله ﴾ هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر به من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى[2].

---

(١) الآيتان ٧٤ و٧٥ من سورة الإسراء.

(٢) انظر تفسير ابن كثير لأول سورة الأحزاب.

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ

بهذا التقرير الحازم الجازم رفعت هذه الآية النبيَّ ﷺ إلى أرفع منزلة وأعلى مكانة عند المؤمنين، فجعلته بهذه المنزلة أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وقد بيَّن ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره سبب هذه المنزلة الرفيعة التي أنزل الله بها نبيّه ﷺ فقال: علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم[1].

قال الله تعالى في بيان شدّة شفقة رسول الله ﷺ على أمته، وعظيم نصحه لهم: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم، حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ ﴾[2]، فهو ﷺ منّة الله سبحانه الكبرى على المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يتلو عليهم آياته، ويزكّيهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قَبْلُ لفي ضلالٍ مُبين ﴾[3]، وشفقته عليه الصلاة والسلام على المؤمنين ورأفته بهم وحرصه على سلامتهم وسعادتهم ليس قاصراً على الحياة الدّنيا، بل يمتد إلى ما بعد الموت، إلى يوم القيامة، قال ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿ النبي أولى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٣) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيّما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته مَنْ كانوا، وإن ترك دَيْناً أو ضَيَاعاً فليأتني فأنا مولاه»[1].

يقضي ﷺ دَيْن مَنْ يموت من أصحابه، ويتولّى رعاية أولادهم بعدهم، فما أعظم رحمته بالمؤمنين وما أشدّ شفقته عليهم!!!

ينشغل يوم القيامة كل إنسان بنفسه عن جميع الناس حتى عن أحبّ الناس إليه وأقربهم منه، كما قال تعالى: ﴿ يوم يفرُّ المرء من أخيه ● وأمِّه وأبيه ● وصاحبته وبنيه ● لكل امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه ﴾[2]، بل يتمنى الإنسان المعذَّب أن يدفع عن نفسه العذاب بأحبّ الناس إليه، قال تعالى: ﴿ يودُّ المجرمُ لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ● وصاحبته وأخيه ● وفصيلته التي تؤويه ● ومَنْ في الأرض جميعاً ثمَّ ينجيه ﴾[3]، كل إنسان ينشغل يوم القيامة بنفسه إلا النبي ﷺ، فإنه يأتي إلى مقام مناجاته لربه عزّ وجلّ، فيخرُّ أمام العرش ساجداً لله سبحانه وتعالى، ويفتح الله عليه بأنواعٍ المحامد ما يفتح، ثم يناديه ربُّ العزّة: ﴿ يا محمد ارفع رأسك، وقل تُسمع، واشفع تشفّع ﴾ فيقول ﷺ: «يا ربِّ أمتي»[4].

فلا أحد ارحم بالمؤمنين وأشفق عليهم بعد الله سبحانه من رسول الله ﷺ، فهو ﷺ أرحم بالمؤمن من نفسه التي بين جنبيه، وأشفق على نفس المؤمن من نفسه.

النبي ﷺ يشفع للمؤمنين ويسعى لإنقاذهم من غضب الجبار وعذابه وانتقامه، بينما أجزاء الإنسان وأبعاضه تشهد عليه بما فعل في الدنيا من المعاصي والآثام، أخبرنا الله سبحانه بهذا في أكثر من آية، منها قوله عزّ وجلّ: ﴿ اليوم نختم على أفواههم، وتكلمنا أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد، حديث أبي هريرة.

(٢) الآيات ٣٤ ـ ٣٧ من سورة عبس.

(٣) الآيات ١١ ـ ١٤ من سورة المعارج.

(٤) انظر حديث الشفاعة في الصحيحين.

(٥) الآية ٦٥ من سورة يس.

وعندما تشهد على الإنسان أعضاؤه وأجزاؤه يتجه إليها صاحبها باللوم والعتاب، تدبر معي قول الله عزّ وجلّ في هذه الآيات: ﴿ ويوم يُحشر أعداءُ الله إلى النار فهم يُوزعون ● حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا؟ قالوا أنطَقَنا الله الذي أنطَقَ كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ● وما كنتم تستترون أن يشهدَ عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم، ولكنْ ظننتم أنَّ اللَّهَ لا يعلم كثيراً مما تعملون ● وذٰلكم ظنّكُم الذي ظننتم أرادكم، فأصبحتم من الخاسرين ﴾[1].

فهل رأيت أعجب من هذا الحوار؟! يتحاور الإنسان مع أبعاضه وأعضائه مُعاتباً ومُوبِّخاً، وهو يذوب حسرةً وكمداً، بينما رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين ويسأل الله سبحانه لهم مغفرة ذنوبهم وستر عيوبهم!!

أهواؤنا وشهواتنا تدفعنا في الدنيا إلى النار وتعرِّضنا لغضب العزيز الجبّار، وأعضاؤنا وأبعاضنا تشهد علينا يوم القيامة، بينما رسول الله ﷺ يدعونا إلى دار السلام، ويشفع لنا يوم القيامة بين يدي الملك العلاَّم، فما أجمل ما ضرب به المثل لنا وله عليه الصلاة والسلام عندما قال: «إنما مَثَلي ومثَلُكم كَمَثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار، تقع فيها، فجعل يَزَعَهُنَّ ويَغْلِبْنَه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحُجَزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»[2].

عموم ولاية النبي ﷺ وشمولها

ولاية النبي ﷺ على المؤمنين عامّة وشاملة، فهي أكمل وأعلى من ولاية الوالد على ولده والسيد على عبده.

فالوالد لا يستطيع شرعاً أن يزوِّج بنته البالغة بدون رضاها، لقوله ﷺ: «لا تُنكح الأيِّم حتى تُستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن» فقالوا:

---

(١) الآيات ١٩ ـ ٢٣ من سورة فصّلت.

(٢) أخرجه الشيخان والترمذي من حديث أبي هريرة.

يا رسول الله: فكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت»[1] وقد ردَّ ﷺ زواج فتاة زوَّجها أبوها بدون رضاها، روى ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن جارية بكراً أتت النبي ﷺ فذكرت أنَّ أباها زوّجها وهي كارهة، فخيَّرها النبي ﷺ[2].

وهذا يدلّ على أنَّ ولاية الوالد على ولده قاصرة غير كاملة، أما النبي ﷺ فله أن يزوِّج أيَّ فتاة مسلمة ممَّن يريد ﷺ، وليس لأحد مهما كان أن يعترض على أمره ﷺ، حتى الفتاة نفسها لا تملك إلا التسليم لأمره عليه الصلاة والسلام.

لمّا خطب النبي ﷺ السيدة زينب بنت جحش بنت عمته لمولاه زيد بن حارثة كرهت زينب هذا الزواج، لأن زيداً كان عبداً ثم أعتقه النبي ﷺ، فأنزل الله سبحانه قوله الكريم في سورة الأحزاب: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم، ومَنْ يَعْصِ اللَّهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾[3].

وهل أتاك خبر زواج جُلَيْبب الصحابي السيد الشهيد رضي الله تعالى عنه، كان قصيراً ذميماً، فخطب النبي ﷺ له امرأة من الأنصار، فقال أبوها: حتى أستأمر أمها، فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها، فقالت: لاها الله، إذن ما وجد رسول الله ﷺ إلا جُليبيباً وقد منعناها من فلان وفلان!! وكانت الجارية في سِتْرها تسمع، فقالت: أتريدون أن تردُّوا على رسول الله ﷺ أمره، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه، فقالا: صدقتِ، فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: إن كنت قد رضيته فقد رضيناه، قال: «إني قد رضيته» فزوَّجها.

ثم فزع أهل المدينة، فركب جُلَيبيب، فوجدوه قد قُتل وحوله ناس من المشركين قد قتلهم. قال أنس رضي الله عنه راوي الحديث: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت في المدينة[4].

---

(١) متفق عليه.

(٢) أبو داود وابن ماجه.

(٣) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

(٤) انظر الحديث في مسند أحمد ورواه مسلم مختصراً.

وهذا يؤكِّد لنا شمول وعموم ولاية النبي ﷺ على المؤمنين، وأنها أعلى وأعظم من ولاية الأُبوَّة.

ثَمَّة فارق كبير بين ولاية النبوّة وبين ولاية الأُبوّة، ولمّا أكرم الله سبحانه أزواج النبي ﷺ بمقام الأُمومة على المؤمنين بقوله الكريم: ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجُه أمّهاتهم ﴾ لم تذكر الآية مقام الأُبوّة للنبي ﷺ، لأنها كرَّمته عليه الصلاة والسلام بولاية أعظم وأشرف، تلك هي ولاية النبوّة على جميع المؤمنين والمؤمنات.

قال العلاّمة الصاوي رحمه الله: (وإذا كان أولى بهم من أنفسهم فهو أولى بمالهم وأولادهم وأزواجهم من أنفسهم بالأولى، فحقّه ﷺ أعظم من حقّ السيد على عبده)[1].

ولا بدَّ أن يكون للتكريم الإلهي والتشريف الربّاني الذي كرَّم الله سبحانه به نبيّهُ ﷺ عندما جعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لا بدَّ أن يكون له نتائج وثمار على المؤمنين أن يسعَوا في تحصيلها، وأن يجدُّوا في جنيها وقِطافها، حتى يكونوا جديرين بولايته ﷺ، فيسعدوا بها في الدنيا والآخرة.

التسليم لحكمه ﷺ

أول هذه النتائج والثمار أنَّ على المؤمنين أن يجعلوا حكم رسول الله ﷺ مقدَّماً على حكمهم لأنفسهم، واختياره ﷺ مقدَّماً على اختيارهم لأنفسهم، مع الرضا والانقياد والتسليم لكل ما يحكم به ﷺ، وهذا شرط أساسي لصحة إيمانهم، فلا يكون الإيمان إلا به كما قال عزّ وجلّ: ﴿ فلا ورَبِّك لا يؤمنون حتى يحكموكَ فيما شَجَرَ بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً ممَّا قضيتَ ويسلِّموا تسليماً ﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: (يقسم تعالى بنفسه

---

(١) انظر الصاوي على تفسير الجلالين.

(٢) الآية ٦٥ من سورة النساء.

الكريمة المقدسة، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيتَ، ويسلِّموا تسليماً ﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلِّمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»)[1].

إن الإعراض عن حكم رسول الله ﷺ وعدم الانقياد له والرضا به، دليل من أدلة الكفر والنفاق، فالكافر والمنافق لا يرضى بحكم رسول الله ﷺ إلا إذا كان موافقاً لهواه، كما قال سبحانه: [وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكمَ بينهم إذا فريقٌ منهم مُعْرضون ● وإن يَكُنْ لهم الحَقُّ يأتوا إليه مُذْعِنين ● أفي قلوبهم مرضٌ، أم ارتابوا، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسولُه، بل أولئك هم الظالمون ● إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكمَ بينهم أن يقولوا سمِعنا وأطَعنا وأولئك هم المفلحون ﴾[2]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿ ألَمْ ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أُنزل من قبلك، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلَّهم ضلالاً بعيداً ● وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدُّون عنك صدوداً ﴾[3].

إن هذه الآيات الكريمة لتنسحب على كثير من الناس الذين يعيشون في بلاد المسلمين في العصر الحاضر، وهم يعدُّون أنفسهم من المسلمين. وذلك بسبب القوانين الوضعية المستوردة التي تحكم كثيراً من البلاد الإسلامية في العصر الحاضر، فكلّ مَن يرضى بمثل هذه القوانين ويقدِّمها على شريعة الله سبحانه التي أتى بها رسول الله ﷺ يكون من الذين يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت، ومن الذين يخافون أن يحيفَ الله عليهم ورسولُه.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

(٢) الآية ٤٨ ـ ٥١ من سورة النور.

(٣) الآيات ٦٠ ـ ٦١ من سورة النساء.

طاعتــه ﷺ

وثانيها: أن يطيعوا رسول الله ﷺ طاعةً كاملةً مع التسليم والانقياد والخضوع لكل ما أمر ﷺ وشرَّع، لأنَّ طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة لله سبحانه، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرسول فقد أطاع الله، ومن تولَّى فما أرسلناك عليهم حَفيظاً ﴾(١). وقال جلّ وعلا أيضاً: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاع بإذن الله، ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسَهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسولُ لوجدوا الله توّاباً رحيماً ﴾(٢).

وإنَّ طاعة رسول الله ﷺ واتّباع سنّته ترفع الإنسان إلى محبة الله سبحانه له، قال تعالى: ﴿ قُلْ إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله ويغفر لكم ذنوبَكم، والله غفور رحيم ﴾(٣).

كما أنَّ مخالفة أمره عليه الصلاة والسلام، أو ترك سنّة من سُننه ﷺ تعرِّض الإنسان للبلاء والفتن في الدنيا، وللعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذر الذين يُخالفون عن أمره أن تصيبَهم فتنةٌ أو يصيبَهم عذاب أليم ﴾(٤)، وإنَّ أهل النار وهم في دَرَكات العذاب ووجوههم تتقلَّب في النار، يتحسرون على ما فرَّطوا وضيَّعوا من طاعة الله سبحانه وطاعة رسول الله ﷺ، انظر إلى الآية الكريمة تصوِّرهم، وهم في العذاب والحسرات: ﴿ يوم تُقَلَّب وجوهُهم في النار يقولون يا ليتنا أطَعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾(٥).

وكل فلاح ونجاح في الدنيا والآخرة مَنُوط بطاعته عليه الصلاة والسلام، والانقياد لأمره والتمسّك بسنّته، وصدق الله العظيم وهو ينادي المؤمنين في سورة الأحزاب فيقول: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتَّقوا الله وقولوا قولاً

---

(١) الآية ٨٠ من سورة النساء.
(٢) الآية ٦٤ من سورة النساء.
(٣) الآية ٣١ من سورة آل عمران.
(٤) الآية ٦٣ من سورة النور.
(٥) الآية ٦٧ من سورة الأحزاب.

سديداً ● يُصْلِح لكم أعمالَكم، ويَغْفِرْ لكم ذنوبَكم، ومن يُطِعِ الله ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾[1].

وقد حذَّر ﷺ من أُناس يأتون بعده، يتركون طاعته، ويرفضون سنّته عليه الصلاة والسلام، يزعمون أنهم يتمسكون بكتاب الله سبحانه فقط، فقال ﷺ: «ألاَ هل عسى رجل يبلغه الحديث عنّي، وهو متكىءٌ على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله تعالى، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه. وإن ما حرَّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله». أخرجه أبو داود والترمذي، وزاد أبو داود في أوله: «ألاَ إني أُوتيت الكتاب ومثلَه معه».

وإنَّ هذا الحديث الشريف من أعلام نبوّته ﷺ، إذ ظهر في بعض العصور الماضية مَنْ ينادي بهذه الدعوة الباطلة، كما وجد في عصرنا الحاضر مَنْ ينادي بها ويدعو إليها. وهي دعوى ظاهرة البطلان، أصحابها خارجون عن الإيمان، مارقون من الإسلام، لأنها تعارض صريح أمر الله سبحانه بالقرآن الكريم: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسولَه، ولا تَوَلَّوا عنه وأنتم تسمعون ﴾[2].

وكيف يدَّعي هؤلاء أنهم يتمسكون بالكتاب الكريم، وكثير من آياته تفرض عليهم وتلزمهم بطاعة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، بل تعلن بأوضح بيان أن طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة لله سبحانه، وقد مرَّ معنا قوله سبحانه: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرسول فقد أطاع الله، ومن تولَّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾[3].

ولهذا انعقد إجماع علماء الأمة من زمنه ﷺ وحتى عصرنا الحاضر على حجيَّة السنّة، وأنها المصدر الأساسي الثاني للشريعة الإسلامية، إلى جانب القرآن الكريم المصدر الأساسي الأول للشريعة الإسلامية، وإن ما تشرِّعه

---

(١) الآيتان ٧٠ ـ ٧١ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٢٠ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ٣٠ من سورة النساء.

السنّة من أحكام بمنزلة ما يشرِّعه القرآن الكريم من حيث العمل بها ولزوم التمسّك بها.

محبتـــه ﷺ

وثالثها: أن على المؤمنين أن يحبُّوا رسول الله ﷺ أكثر من حبهم لأنفسهم وأموالهم وأولادهم وجميع الناس، فحبُّ رسول الله ﷺ يجب أن يكون مقدّماً في قلوبهم على كل حب بعد حب الله سبحانه وتعالى.

تدبَّر قول الله سبحانه الذي يتوعَّد ويتهدَّد من لا يُقدِّمون حبّ الله ورسوله ﷺ على أيّ حب في قلوبهم: ﴿قُلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تَخشَوْن كسادها، ومساكن ترضَوْنَها، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1]، وكيف لا يؤثِر المؤمنون رسول الله ﷺ على كل هؤلاء الذين ذُكِروا في الآية القرآنية وهو ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، بل كيف لا يحبّ المؤمنون رسول الله ﷺ أعظم حب بعد حبهم لله سبحانه وقد جمع الله سبحانه لرسوله ﷺ جميع المحاسن الخِلْقية والخُلُقية؟! فإذا أحببت إنساناً لفضله وإحسانه ففضل رسول الله ﷺ عليك وإحسانه لك أعظم فضل وأتمّ إحسان بعد فضل الله سبحانه وإحسانه عليك، وإذا أحببت إنساناً لأخلاقه، فرسول الله ﷺ أولى بهذا الحبِّ لأنه أكمل الناس أخلاقاً، بشهادة رب العزّة له بذلك بقوله سبحانه: ﴿وإنَّك لَعَلى خلق عظيم﴾[2]، وإذا أحببت إنساناً لجماله وكماله، فرسول الله ﷺ أولى بهذا الحب لأنه أكمل الناس وأجملهم.

ولهذا لا تكون مؤمناً حتى يكون رسول الله ﷺ أحبّ إليك من نفسك، لأنه ﷺ أولى بك من نفسك، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»[3].

---

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة.
(٢) الآية ٤ من سورة القلم.
(٣) متفق عليه.

ولما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله يا رسول الله لأنتَ أحبُّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحبّ إليّ من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر»[1].

وإذا أحببت رسول الله ﷺ هذا الحب، وأنزلت حبَّه في نفسك وقلبك هذه المنزلة، فأبشر، فإنك ستحشر يوم القيامة تحت لوائه عليه الصلاة والسلام، وتكون معه في الجنة بفضل الله سبحانه، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: «وماذا أعددت لها؟» قال: لا شيء إلا أني أُحبّ الله ورسوله، فقال: «أنت مع مَنْ أحببت» قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع مَنْ أحببت» فأنا أُحبّ النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبّي إيّاهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

واعلم أنَّ المحبَّ لا يكون صادقاً في محبته حتىٰ يحرص كل الحرص على اتّباع محبوبه واتباع آثاره، فاحرص علىٰ التمسك بسنّة رسول الله ﷺ أشدَّ الحرص، فمتابعتك له ﷺ وتمسكك بسنّته دليل محبتك له عليه الصلاة والسلام. وإيّاك والغلوَّ في المحبة بحيث تجعلك ترفع النبي ﷺ فوق المكانة والمنزلة التي أنزله الله سبحانه بها، فهو ﷺ عبد الله ورسوله وحبيبه وخِيرته من خلقه، أكرمه الله بأعظم رسالة وحمَّله أكبر أمانة.

وقد أخبرنا الله في القرآن الكريم خبر النصارىٰ الذين جعلهم الغلو يرفعون عيسى عليه السلام من مقام العبودية لله سبحانه إلىٰ مقام الألوهية، فزعموا أنَّ عيسىٰ عليه السلام هو الله سبحانه أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، تعالىٰ الله سبحانه عن ذلك علوّاً كبيراً، قال جلّ وعلا: ﴿ يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم، ولا تقولوا علىٰ الله إلا الحقَ، إنما المسيح عيسى بنُ مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، ورُوح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا

---

(١) أحمد في المسند.

تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم، إنما الله إلَهٌ واحد سبحانه أن يكون له ولدٌ، له ما في السموات وما في الأرض وكفىٰ بالله وكيلاً ● لن يستنكفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾[1].

وقد حذّرنا النبي ﷺ أن نكون مثل النصارىٰ فقال ﷺ: «لا تُطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ بن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله»[2] وروىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا سيدنا وابن سيدنا، ويا خيرنا وابن خيرنا، فقال النبي ﷺ: «يا أيّها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينّكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله ورسول الله، واللَّهِ ما أحبّ أن ترفعوني فوق ما رفعني الله عزَّ وجلَّ»[3].

والحديث لا يدلّ علىٰ منع وصف سيدنا رسول الله ﷺ «بالسيد»، فهو ﷺ سيد الأوّلين والآخرين، والقائل: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشقّ عنه القبر، وأول شافع وأول مشفَّع»[4].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمَن سواه، إلا تحت لوائي، وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر»[5].

وقد وصف ﷺ الحسن بن السيدة فاطمة رضي الله عنهما بصفة السيد فقال: «إنَّ ابني هذا سيدٌ ـ يعني الحسن ـ ولعلّ الله أن يصلحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[6].

ومن محبته ﷺ محبة أصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم، ومحبة أهل بيته

---

(١) الآيتان ١٧١ ـ ١٧٢ من سورة النساء.
(٢) أخرجه البخاري من حديث عمر.
(٣) أخرجه أحمد في المسند.
(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٥) أخرجه أحمد والترمذي.
(٦) أحمد والبخاري من حديث أبي بكرة.

وأزواجه أمهات المؤمنين، قال ﷺ: «اللَّهَ اللَّهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غَرَضاً بعدي، فمن أحبّهم فبحبي أحبّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذىٰ الله ومن آذىٰ الله يوشك أن يأخذه»[1].

وقد أوصىٰ رسول الله ﷺ بأهل بيته كما جاء في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه ﷺ قام خطيباً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ووعظ وذكّر ثم قال: «أما بعد: ألا أيّها الناس فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيَ رسول ربي فأجيبه، وأنا تارك فيكم ثَقَلَيْن: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ـ فحثَّ علىٰ كتاب الله ورغَّب فيه ـ ثم قال: «وأهل بيتي أُذكِّركم اللَّهَ في أهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي»[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنَّه قال: «ارقبُوا محمداً ﷺ في أهل بيته»[3] ومعنى ارقبوا: راعوا واحترموا وأكرموا، فعلىٰ المسلم أن يحبّ آل بيت رسول الله ﷺ وأن يحترمهم ويكرمهم ويعرف لهم مكانتهم، لكن لا ينبغي الغلوُّ في محبتهم بحيث نرفعهم إلىٰ منزلة فوق منزلة الأنبياء والمرسلين، فهم ليسوا معصومين عن الخطأ، إنما العصمة للأنبياء والمرسلين، ولا يجوز أن نرفعهم إلىٰ مكانتهم، مع اعتقادنا بفضل أهل البيت ووجوب محبتهم وإكرامهم واحترامهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّوا الله لما يغذوكم من نِعمه، وأحبّوني لحبِّ الله، وأحبّوا أهل بيتي لحبّي»[4].

وإذا صدر عن بعضهم شيء من المخالفات الشرعية، فلا ينبغي أن يؤثر هذا على احترامنا لهم وتقديرنا لقرابتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) أحمد والترمذي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) أخرجه الترمذي.

وسلم، فالعقوق لا يمنع الحقوق، فالولد العاقّ لوالديه، يستحق رغم عقوقه لهما نصيبه وحقه الشرعي في ميراثهما، كذلك لا ينبغي ما يصدر من بعض أهل البيت، أن يمنعنا من معرفة حقهم وفضلهم واحترامهم، فهم ليسوا معصومين عن الخطأ، والله سبحانه هو الذي يحاسبهم، أما نحن عامّة المؤمنين فعلينا احترامهم وتكريمهم.

الصـــلاة والسلام عليه ﷺ

ورابعها: الصلاة والسلام عليه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، فقد أمرنا ربُّ العزّة جلَّ جلاله أمراً إلزامياً صريحاً واضحاً بالصلاة والسلام عليه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، وذلك بعد أن أخبرنا سبحانه أنه يصلّي عليه، وأن ملائكته يصلُّون عليه، فقال عزَّ وجلَّ في سورة الأحزاب: ﴿ إنَّ الله وملائكته يصلُّون على النبي، يا أيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلموا تسليماً ﴾[1].

وتدبّرْ معي كيف بدأ الله سبحانه الآية بـ «إنَّ» التي تدلّ علىٰ التأكيد، وكلمة ﴿ يصلُّون ﴾ التي تدل علىٰ دوام واستمرار صلاة الله سبحانه وصلاة الملائكة علىٰ النبي ﷺ.

ومن المعلوم أنَّ الصلاة من الله سبحانه علىٰ نبيّه رحمته المقرونة بالتعظيم، وأن الصلاة من الملائكة والمؤمنين دعاء وثناء، وهذا يدل علىٰ أن رحمات المولىٰ الكريم سبحانه تتوالىٰ علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم دائماً ودون انقطاع في حياته وبعد موته عليه الصلاة والسلام، وأنَّ فضله صلىٰ الله عليه وسلم وتكريم الله سبحانه له، ورفعه لدرجاته، كل ذلك مستمر ودائم دون توقف ولا انقطاع. قال الشيخ الصاوي رحمه الله: (الصلاة من الله علىٰ نبيّه رحمته المقرونة بالتعظيم، ومن الله علىٰ غير النبي مطلق الرحمة لقوله تعالىٰ: ﴿ هو الذي يصلِّي عليكم وملائكته ليخرجكم من

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

الظلمات إلىٰ النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾[1] فانظر إلى الفرق بين الصلاتين والفضل بين المقامين)[2].

وإن كلَّ مؤمن مكلَّف بالصلاة والسلام عليه ﷺ، سواء كان النبي ﷺ حاضراً أم غائباً حيّاً أو ميتاً، لأن الأمر الإلٰهي بذلك أتىٰ مطلقاً عن أيّ قيد من القيود «يا أيّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً ﴾.

● وقد يقول قائل: إذا كان الله سبحانه يصلِّي على نبيّه عليه الصلاة والسلام؛ فأيّ حاجة إلىٰ صلاة الملائكة والمسلمين عليه صلىٰ الله عليه وسلم...؟

والجواب: إن الله سبحانه شرع الصلاة علىٰ النبي ﷺ إظهاراً لاحترام وتعظيم الملائكة والمؤمنين له عليه الصلاة والسلام، ولم يشرعها لحاجة النبي ﷺ إليها مع صلاة الله عليه.

فهو عليه الصلاة والسلام معظَّم ومحترم ومكرم في الملأ الأعلىٰ بصلاة الملائكة عليه، ومعظَّم أيضاً ومحترم ومكرّم في الملأ الأدنىٰ بصلاة المؤمنين عليه، قال ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: (المقصود من هذه الآية أنّ الله سبحانه وتعالىٰ أخبر عباده بمنزلة نبيّه وعبده عنده في الملأ الأعلىٰ بأنه يثني عليه عند الملائكة المقرّبين وأن الملائكة تصلّي عليه)[3]، وأزيدك في الجواب أمراً آخر يستدعي منّا أن نحمد الله حمداً كثيراً ونشكره شكراً جزيلاً، لأنه سبحانه كلَّفنا وأمرنا بالصلاة علىٰ نبيّه ﷺ رحمة بنا وشفقة علينا، إذ ثواب صلاتنا عليه ﷺ يعود علينا، فضلاً منه سبحانه وتكريماً لنبيّه ﷺ، قال ﷺ: «مَنْ صلّىٰ عليَّ صلاة صلىٰ الله عليه بها عشراً »[4] فما أكرم هذا النبي ﷺ علىٰ الله! وما أعظم مِنَة الله علينا به عليه الصلاة والسلام!.

---

(١) الآية ٤٣ من سولأة الأحزاب.

(٢) انظر تفسير الصاوي علىٰ الجلالين ج ٣.

(٣) انظر تفسير ابن كثير.

(٤) رواه مسلم.

● وإذا كنت تحب أن تكون قريباً منه عليه الصلاة والسلام يوم القيامة فأكثِر من الصلاة عليه ﷺ فهو القائل: «أولىٰ الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة»[1].

وإذا أردت أن يكفيك الله هموم الدنيا، فينشرح صدرك وتسكن نفسك، ويطمئن قلبك، وأن يضع الله عنك أثقال أوزارك يوم القيامة، فيغفر لك ذنوبك ويستر عيوبَك، فاجعل ثواب صلاتك له عليه الصلاة والسلام، روىٰ الترمذي عن أُبيِّ بن كعب قال: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي..؟ قال: «ما شئت» قلت: الربع، قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: فالنصف، قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك» قلت: فالثلثين، قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: «إذاً تُكْفىٰ همّك ويُغفر لك ذنبك».

● وإذا أردت أن يصلِّي ربُّ العزّة والجلال عليك ويسلِّم عليك، فصلِّ وسلِّم علىٰ نبيّه عليه الصلاة والسلام، روىٰ الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال: قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة فخرَّ ساجداً فأطال السجود حتىٰ ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها، فدنوت منه ثم جلست فرفع رأسه فقال: «مَنْ هذا؟» قلت: عبد الرحمن، قال: «ما شأنك؟» قلت: يا رسول الله سجدتَ سجدة خشيت أن يكون الله قبض روحك فيها، فقال: «إنَّ جبريل أتاني فبشّرني أن الله عزَّ وجلَّ يقول لك: مَن صلَّىٰ عليك صلّيت عليه، ومن سلّم عليك سلّمت عليه، فسجدت لله عزَّ وجلَّ شكراً...».

● إنَّ صلاتنا علىٰ النبي ﷺ تشريف لنا وتكريم، لأننا نقتدي بربنا ربّ العزّة والجلال في الصلاة عليه وتعظيمه ﷺ، وفيها أيضاً مكافأة النبي ﷺ علىٰ بعض حقوقه علينا، قال الشيخ الصاوي رحمه الله: (وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين علىٰ النبي ﷺ تشريفهم بذلك، حيث اقتدوا بالله جلَّ وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه، ومكافأة لبعض حقوقه علىٰ الخلق لأنه

---

(١) مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

الواسطة العظمىٰ في كل نعمة وصلت لهم، وحقٌّ علىٰ مَن وصَل له نعمةٌ من شخص أن يكافأه، ولما كان الخلق عاجزين عن مكافأته ﷺ طلبوا من القادر الملك أن يكافأه، وهذا هو السر في قولهم: «اللَّهمّ صلِّ علىٰ محمد»[1].

ولا بدَّ لك عندما تصلّي علىٰ النبي ﷺ أن تتذكر بعض شمائله الكريمة ومحاسنه الخَلْقيَة والخُلقية، فتحيا ولو لفترة من الزمان بقلبك وفكرك معه ﷺ، إن الصلاة علىٰ النبي ﷺ حبل من نور يصلك، مهما بَعُدَ بك الزمان والمكان، بمهبط الرحماتِ الإلٰهية ومركز الإفاضات الربانية، به ﷺ.

● وإذا أردت دعاء ربك سبحانه فاجعل الصلاة علىٰ النبي ﷺ في دعائك، لأن الصلاة علىٰ النبي ﷺ مقبولة قطعاً غير مردودة، والله سبحانه أكرم من أن يقبل بعض الدعاء ويردّ بعضه، قال الشيخ أبو إسحق الشاطبي رحمه الله تعالىٰ: ﴿الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ مُجابة علىٰ القطع، فإذا اقترن بها السؤال شُفعت بفضل الله تعالى﴾، وقال العلّامة ابن عابدين رحمه الله: (دعاء المؤمن بطلب الصلاة من ربه تعالىٰ مقبول قطعاً، أي مجابٌ، بإخباره سبحانه وتعالىٰ بأنه يصلِّي عليه، بخلاف سائر أنواع الدعاء وغيره من العبادات، وليس في هذا ما يقتضي أن المؤمن يُثاب عليها أو لا يُثاب، بل معناه أن هذا الطلب والدعاء مقبول غير مردود، وأما الثواب فهو مشروط بعدم العوارض كما قدّمناه)[2].

● وإيّاك أن تبخل بالصلاة عليه ﷺ عند ذكره، فإنك إنما تبخل عن نفسك بالرحمات والبركات والحسنات التي يتفضّل بها ربّك سبحانه وتعالىٰ على مَنْ يصلِّي عليه ﷺ، فتكون حقّاً بخيلاً، كما قال ﷺ: «البخيل مَن ذُكِرتُ عنده ثم لم يصلِّ عليَّ»[3].

فعليك أن تصلِّي عليه كلما ذكر سواء ذُكِر نطقاً أو كتابة، وإياك أن

---

(١) انظر صفوة التفاسير.

(٢) انظر حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٣٥٠.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

تكتفي إذا ذكرته كتابةً بكتابة حرف الصاد كرمز للصلاة عليه ﷺ، فإن الرمز لا يدلّ علىٰ أنك صلّيت عليه فعلاً، وأذكّرك بدعاء النبي ﷺ علىٰ الذي لا يصلّي عليه عند ذكره، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «رغمَ أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجلٍ أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخِلاه الجنة»[1].

الحذر من إيذاء النبي ﷺ

وخامسها: أن يحذروا من أن يؤذوا رسول الله ﷺ، بل عليهم تعظيمه وتوقيره واحترامه كما قال الحق سبحانه: ﴿ فالذين آمنوا به، وعزَّروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون ﴾[2] ومعنىٰ عزروه أي «عظَّموه ووقَّروه» كما قال ابن كثير في تفسيره وقال ربّ العزّة أيضاً: ﴿ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزِّروه وتوقِّروه وتسبِّحوه بكرةً وأصيلاً ﴾[3].

قال في صفوة التفاسير: «تعزِّروه أي تفخِّموه وتعظِّموه، وتوقروه أي تحترموه وتُجِلّوا أمره مع التعظيم والتكريم، والضمير فيهما للنبي ﷺ».

وبعد أن أمر الله سبحانه في سورة الأحزاب المؤمنين بالصلاة والسلام عليه صلىٰ الله عليه وعلى آله وسلم قال جلَّ وعلا، يتهدَّد ويتوعد الذين يؤذونه عليه الصلاة والسلام: ﴿ إن الذين يؤذون اللَّهَ ورسولَه لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً ﴾[4]، والتأذّي من الله سبحانه مستحيل ولهذا قالوا: إيذاء الله مخالفة أوامره وارتكاب زواجره، أو وصفه سبحانه بصفة لا تليق به، وذلك مثل وصْف اليهود لله سبحانه وتعالىٰ بالبخل وهو أكرم الأكرمين، وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿ وقالت اليهود

---

(١) أخرجه الترمذي ورواه البخاري بنحوه.
(٢) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.
(٣) الآيتان ٨ ـ ٩ من سورة الفتح.
(٤) الآية ٥٧ من سورة الأحزاب.

يَدُ الله مَغْلولة غُلَّتْ أيديهم ولُعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾[1].

وكقول النصارىٰ المسيح ابن الله تعالَىٰ الله سبحانه عن ذلك علوّاً كبيراً «وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السمواتُ يتفطَّرن منه وتنشقّ الأرض وتَخِرُّ الجبال هدّاً أنْ دَعَوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إنْ كل مَنْ في السمواتِ والأرض إلا آتي الرحمن عَبْداً لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً وكلهم آتيه يوم القيامة فَرْداً ﴾[2]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿ يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهرَ وأنا الدهر، أقلِّب ليله ونهاره ﴾».

وقال جماعة من المفسِّرين إنَّ الآية: ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ تحمل علىٰ حذف مضاف والتقدير: إن الذين يؤذون أولياء الله[3] ـ ولعلّ الحديث التالي يؤكد ما حكاه الشوكاني في تفسيره عن بعض المفسِّرين، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالىٰ قال: من عادَىٰ لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما يتقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبُّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه»[4].

● وأما إيذاء رسول الله ﷺ فيشمل كل ما يؤذيه ﷺ من الأقوال والأفعال بعيب أو نقصٍ، عياذاً بالله من ذلك، وهذا الوعيد الشديد بالطرد من رحمة الله سبحانه في الدنيا والآخرة وبالعذاب المهين يدلّ علىٰ شناعة وضخامة جريمة مَنْ يؤذي رسول الله صلّىٰ الله عليه وعلى آله وسلم.

وقد كان اليهود والمنافقون علىٰ رأس الذين يؤذون رسول الله ﷺ،

---

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة.

(٢) الآيات ٨٨ ـ ٩٥ من سورة مريم.

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني ٤/٣٠٢.

(٤) رواه البخاري.

حتىٰ إنهم كانوا إذا حيُّوا رسول الله ﷺ قالوا: «السام عليك» ومعناه الموت، فأنزل الله سبحانه قوله الكريم: ﴿ وإذا جاؤوك حَيَّوك بما لم يُحيِّك به الله، ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول، حَسْبهم جهنَّم يصلونها فبئس المصير»[1].

وقد حذَّر الله المؤمنين من التشبُّه باليهود والمنافقين، الذين كانوا يختارون الكلمات التي تحتمل بعض المعاني السيئة، فيخاطبون بها رسول الله ﷺ بقصد توجيه الأذىٰ له، فقال جلَّ وعلا: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تقولوا راعِنَا وقولوا انْظُرنا، واسمعوا وللكافرين عذابٌ أليمٌ ﴾[2].

فهذا يدل أنَّ علىٰ المؤمن إذا تحدَّث أو كتب في موضوع يتصل برسول الله ﷺ، أن يحسن اختيار الكلمات والجمل التي تليق بجنابه الشريف عليه الصلاة والسلام، وأن يبتعد عن الكلمات التي تحتمل بعض المعاني التي لا تليق بجنابه العالي ومكانته الرفيعة ﷺ، حتىٰ لا يكون ممَّن يؤذون رسول الله عليه السلام ويتشبَّه باليهود والمنافقين نعوذ بالله من ذلك.

ولهذا كرر الله سبحانه في سورة الأحزاب تحذير المؤمنين من أن يؤذوا رسولَ الله ﷺ، فيكونوا مثل اليهود الذين آذَوا رسول الله ﷺ وآذَوا من قَبْله موسى عليه السلام فقال عزَّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوا موسى فبرّأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهاً ﴾[3].

● ومما يؤذي رسول الله ﷺ كل عمل يشقّ عليه ﷺ ويكرهه، كالدخول إلىٰ بيته بغير إذنه، أو إطالة الجلوس عنده ﷺ، ولقد بيَّنَ الله لنا سبحانه آداب الزيارة في الوليمة ليتأدب بها الصحابة رضي الله عنهم، فلا يتسبَّبوا بأيِّ أذىٰ لرسول الله ﷺ، فقال عزَّ وجلّ في سورة الأحزاب: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غيرَ ناظرين إنَاهُ، ولكن إذا

---

(١) الآية ٨ من سورة المجادلة.
(٢) الآية ١٠٤ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٦٩ من سورة الأحزاب.

دُعيتم فادخلوا، فإذا طَعِمْتُم فانتشروا، ولاَ مستأنسين لحديثٍ، إنَّ ذٰلكم كان يُؤذي النبي، فيستحِي منكم، والله لا يستحيِّ من الحق، وإذا سألتموهنَّ متاعاً فاسألوهنَّ من وراء حجاب، ذٰلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ، وما كان لكم أن تُؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذٰلكم كان عند الله عظيماً ﴾[1].

وسبب نزول هذه الآية شهده أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ وحدَّث عنه فقال: تزوَّج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، فصنعتْ أمي أُمُّ سُلَيم حَيْساً[2]، فجعلته في تَوْر ـ إناء يُشرب فيه ـ فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلىٰ النبي ﷺ فقل له: بعثت بهذا إليك أمي وهي تُقرِئُكَ السلام وتقول: إنَّ هذا لك منّا قليل يا رسول الله. قال: فذهبت به إلىٰ رسول الله ﷺ فقلت: إنَّ أمي تُقرئُك السلام وتقول: إنَّ هذا منَّا لك قليل، قال: ثم قال: «اذهب فادْعُ لي فلاناً وفلاناً وفلاناً ومَنْ لقيت» وسمَّى رجالاً، قال: فدعَوت من سمَّن ومن لقيت، زهاء ثلاثمائة، وقال لي رسول الله ﷺ: «يا أنس هاتِ بالتَوْر...» قال: فدخلوا حتىٰ امتلأت الصفَّة والحجرة فقال ﷺ: «ليتحلَّق عشرة عشرة وليأكل كل إنسان مما يليه..» قال فأكلوا حتىٰ شبعوا، فخرجتْ طائفة ودخلت طائفة حتىٰ أكلوا كلهم، فقال لي: «يا أنس، ارفعْ» قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت؟!.

قال: وجلس منهم طوائف يتحدَّثون في بيت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس وزوجته مولِّية وجهها إلى الحائط، فثقلوا علىٰ رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ فسلَّم على نسائه ثم رجع، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنُّوا أنهم قد ثقلوا عليه، فابتدروا الباب فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخىٰ الستر ودخل وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلا يسيراً حتىٰ خرج عليَّ وأُنزلت هذه الآيات، فخرج رسول الله ﷺ

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب.

(٢) الحيس: تمر يخلط بسمن ودقيق.

فقرأهنّ علي الناس: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي... ﴾ الآية[1].

وفي سورة الحجرات عدد من الآيات بيَّنَ الله سبحانه فيها أدب مخاطبة رسول الله ﷺ، قال الله تعالى فيها: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يديّ الله ورسوله، واتقوا الله إن الله سميع عليم ● يا أيُّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبطَ أعمالكم وأنتم لا تشعرون ● إن الذين يغضُّون أصواتَهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ، لهم مغفرة وأجر عظيم ● إنَّ الذين ينادونك من وراء الحجراتِ أكثرهم لا يعقلون ● ولو أنَّهم صبروا حتىٰ تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴾[2].

ولا يخفىٰ على المتدبّر لهذه الآيات خطورة إيذاء رسول الله ﷺ مهما كان هذا الأذىٰ بسيطاً، فإنَّ رَفْع الصوت في حضرته عليه الصلاة والسلام يؤدِّي إلىٰ بطلان ثواب العبادات كلها، وهذا تهديد شديد ووعيد مخيف يدلّ علىٰ عظيم مكانة رسول الله ﷺ عند ربه جلَّ وعلا، حتىٰ إنَّ أحد الصحابة، وهو ثابت ابن قيس رضي الله عنه خاف خوفاً شديداً لمَّا نزلت هذه الآية لأنه كان رفيع الصوت، فاعتزل وجلس في بيته يبكي حتى تفقَّده رسول الله ﷺ، وأرسل رجلاً يسأل عنه، فقال ثابت: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، أنا من أهل النار، حبط عملي، فقال النبي ﷺ: «لا بل هو من أهل الجنة» فقتل رضي الله عنه بعد ذلك شهيداً في معركة اليمامة[3].

● ومما يؤذي رسول الله ﷺ كره بعض الصحابة رضي الله عنهم أو سبَّهم أو انتقاصهم، أو أن يُنسب إليهم أفعالٌ لم يفعلوها علىٰ سبيل الطعن بهم رضي الله عنهم أو وصفهم بنقيض ما أخبر الله تعالىٰ عنهم، فإن الله سبحانه قد زكّاهم في كتابه الكريم وأخبر أنه قد رضي الله عن المهاجرين

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) الآيات ١ ـ ٥ من سورة الحجرات.

(٣) انظر الحديث في صحيح البخاري.

والأنصار، فمدحهم وأثنىٰ عليهم في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله عزَّ وجلّ: ﴿محمدٌ رسولُ الله، والذين معه أشدَّاء على الكفار رُحَماء بينهم، تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلُهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل، كزرع أخرج شَطْأه فآزرَه فاستغلظَ فاستوىٰ على سوقه، يُعجب الزرَّاع ليغيظَ بهم الكفارَ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: (ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك، والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم، وفي النهي عن التعرّض لهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم)[2].

ومن هذه الآيات أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿والسابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم ورَضُوا عنه، وأعدَّ لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾[3]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، والذين آوَوْا ونصروا، أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم مغفرة ورزق كريم﴾[4].

وقد حذَّر رسول الله ﷺ من سبِّ الصحابة رضي الله عنهم فقال: «لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنَّ أحدَكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَهُ»[5].

ولما قيل للسيدة عائشة رضي الله عنها إنَّ قوماً يشتمون أصحاب محمد ﷺ قالت: (أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبُّوهم)[6].

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الفتح.
(٢) انظر تفسير ابن كثير.
(٣) الآية ١٠٠ من سورة التوبة.
(٤) الآية ٤ من سورة الأنفال.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٦) انظر كتاب السيدة عائشة للمؤلف.

والذي أشارت إليه السيدة رضي الله عنها هو قوله تعالىٰ: ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[1].

والجدير بالذكر أن الله سبحانه بعد أن هـدَّد وتوعَّـد الذين يؤذون رسول الله ﷺ باللعن والعذاب المهين حذَّر سبحانه بعد ذلك مباشرة من إيذاء المؤمنين والمؤمنات عموماً، فقال جلَّ وعلا: ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مُبيناً ﴾[2].

ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم أفضل المؤمنين والمؤمنـات عموماً، وأنهم متقدِّمون على جميع المؤمنين بشرف صحبتهم للنبي ﷺ، وحسن فهمهم للإسلام، وتطبيقهم له، ونشرهم له في المشارق والمغارب، حتى قال فيهم رسول الله ﷺ لما سُئل أيُّ الناس خير؟ قال: «قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[3].

● ومما يؤذي رسول الله ﷺ أيضاً، إيذاء أهل بيته بانتقاصهم أو سبّهم أو الاعتداء عليهم، وعدم معرفة فضلهم رضي الله عنهم، قال ﷺ: «فاطمة بَضْعة مني يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصِهْري»[4]، وفي صحيح البخاري أنه ﷺ قال: «فاطمة بَضْعة مني، فمَن أغضبها أغضبني».

ولما تكلم المنافقون بحديث الإفك وأشاعوه بين الناس، واتهموا أُمّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها زوراً وبهتاناً، وقف ﷺ في المسجد قبل أن يُنزِل الله سبحانه براءتها فقال: «يا معشر المسلمين، مَنْ يعذرني من رجل قد بلَغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً»[5].

---

(١) الآية ١١ من سورة الحشر.
(٢) الآية ٥٨ من سورة الأحزاب.
(٣) مسلم في صحيحه.
(٤) أحمد والحاكم من حديث المِسْوَر.
(٥)) الحديث في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها.

ثم أنزل الله تعالى بعد ذلك آيات في سورة النور تشهد ببراءتها وبراءة أُمّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ، يتلوها المؤمنون حتى قيام الساعة، أولها قوله تعالى: ﴿ إن الذين جاؤوا بالإفك عصبةٌ منكم، لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم، لكل امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولّى كِبْره منهم له عذاب عظيم ﴾[1].

فالحذر كلّ الحذر من التعرض لأمهات المؤمنين رضي الله عنهنّ بشيء لا يليق بمقامهنَّ الذي شرّفهنّ الله به عندما أكرمهنَّ الله سبحانه بزواجهنّ من رسول الله ﷺ، وسيأتي معنا إن شاء الله الحديث عن مقامهنَّ ومكانتهنَّ في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

---

(١) الآية ١٠ من سورة النور.

الأُسْوَةُ الحَسَنَةُ

كانت غزوة الأحزاب من الأحداث الضخمة التي مرَّت بها الدعوة الإسلامية في عهد النبي ﷺ، ففيها امتحن المسلمون امتحاناً كبيراً وزلزلوا زلزالاً شديداً، جاء ذلك في قول الله سبحانه: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَرَوها وكان الله بما تعملون بصيراً ● إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ● هنالك ابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً ﴾[1].

وفي غزوة الأحزاب ميَّز الله بين المؤمنين والمنافقين، فظهر صدق إيمان المؤمنين حتىٰ قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسولُه، وصدق الله ورسولُه وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾[2].

وظهر فيها كذب المنافقين فقال الله فيهم: ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ ما وعدنا الله ورسولُه إلا غُروراً ● وإذ قالت طائفة منهم يا أهلَ يَثْرِبَ لا مقامَ لكم فارجعوا، ويستأذن فريقٌ منهم النبيَّ يقولون إنَّ بيوتَنا عَوْرَةٌ وما هي بعورة، إن يريدون إلا فراراً ● ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبَّثوا بها إلا يسيراً ﴾[3].

(١) الآيات ٩ ـ ١١ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية ٢٢ من سورة الأحزاب.
(٣) الآيات ١٢ ـ ١٤ من سورة الأحزاب.

وتغير بعد غزوة الأحزاب ميزان الصراع بين الإيمان والكفر، فرجحت كفّة الإيمان علىٰ الكفر، وتحول موقف النبي ﷺ والمؤمنين من الدفاع إلى الهجوم، ويُروىٰ أن رسول الله ﷺ قال بعد نهاية غزوة الأحزاب: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»[1].

فلم تغزهم قريش بعد ذلك، وكان عليه السلام هو الذي يغزوها حتىٰ فتح الله عليه مكة.

وقد عرضت آيات من سورة الأحزاب مواقف كلٍّ من المؤمنين والمنافقين ويهود بني قريظة في أثناء غزوة الأحزاب.

وبعد أن تحدَّثت الآيات عن مواقف المنافقين، وقبل الحديث عن موقف المؤمنين قال الله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول أُسْوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليومَ الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

فقوله سبحانه: ﴿أُسوة حسنة﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه في نفسه أُسوة حسنة أي قدوة وهو المؤتسىٰ به أي المقتدىٰ به، وثانيهما أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسىٰ بها وتتبع وهي المواساة بنفسه[2].

وما أكثر ما واسىٰ رسول الله ﷺ بنفسه المؤمنين في غزوة الأحزاب، قال ابن كثير رحمه الله: ﴿هذه الآية أصل كبير في التأسِّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالىٰ الناس بالتأسِّي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته، ومرابطته ومجاهدته، فقال للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة)[3].

فقد كان ﷺ في هذه الأوقات العصيبة مصدر ثقة واطمئنان وأمان للمسلمين، ولقد أحسن سيد قطب ـ رحمه الله ـ في قوله في ظلال هذه الآية

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة، وابن كثير في التفسير عن محمد بن إسحق، وأخرجه البخاري في صحيحه من حديث سليمان بن صرد بلفظ «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم».

(٢) انظر تفسير الكشاف.

(٣) انظر تفسير ابن كثير.

الكريمة: ﴿ وقد كان رسول الله ﷺ علىٰ الرغم من الهول المرعب، والضيق المُجهد، مثابة أمانٍ للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان، وإن دراسةَ موقفه ﷺ في هذا الحادث الضخم لممَّا يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم، وفيه أُسوة حسنة لِمَن كان يرجو الله واليوم الآخر وتطلَّب نفسه القدوة الطيبة، ويذكر الله لا ينساه﴾[1].

ورحم الله سيد قطب، لو أن الدعاة إلىٰ الله في زماننا وقادة الجماعات الإسلامية تفهَّموا مواقفه عليه الصلاة والسلام في غزوة الخندق واقتدوا به وترسَّموا خطاه، لجنّبوا أنفسهم والمسلمين كثيراً من البلاء والمشقّة والعنت، ولحقّقوا للدعوة الإسلامية كثيراً من التقدم والنجاح.

● «لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة» فلننظر إليه ﷺ في غزوة الأحزاب ولنتأمل بعض مواقفه فيها.

ـ لما سمع رسول الله ﷺ بمسير جيش الأحزاب استشار أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي رضي الله بحفر الخندق، فأُعجب عليه الصلاة والسلام برأي سلمان وأمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة، وطبّق رسول الله ﷺ في هذا مبدأ الشورىٰ ونفَّذه.

ـ شارك ﷺ أصحابه بحفر الخندق بنفسه وتحمَّل معهم مشقة العمل وشدته، ففي الصحيحين عن البراء رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ وهو ينقل معنا التراب، ولقد وارىٰ الترابُ بياض بطنه وهو يقول:

واللَّهِ لـولا الله مـا اهتـدينـا ... ولا تصـدَّقنـا ولا صـلَّينـا
فـأنْـزِلَـنْ سكـينـةً عـلينـا ... وثبِّت الأقـدامَ إن لاقـينـا
والمشـركون قـد بَغَوا علينـا ... إذا أرادوا فـتنـة أبـينـا

ويرفع بها صوته.

ولنا أن نتصور ـ كما يقول سيد قطب ـ هذا الجو الذي يعمل فيه

---

(١) انظر ظلال القرآن.

المسلمون والرسول ﷺ بينهم يضرب بالفأس ويجرف بالمسحاة ويحمل في المكتل، ويرفع صوته مع المرتجزين وهم يرفعون أصواتهم بالرجز أثناء العمل، فيشاركهم الترجيع، لنا أن نتصور أيّة طاقة يطلقها هذا الجو في أرواحهم وأيّ ينبوع يتفجر في كيانهم بالرضى والحماسة والثقة والاعتزاز.

ـ ولقد تمكن الصحابة رضي الله عنهم من حفر الخندق في وقت قصير قبل وصول جيش الأحزاب رغم المصاعب الهائلة التي واجهتهم، ومن أشدّها عليهم البرد والجوع، ومن المعروف أن البرد والجوع أكبر المعوِّقات التي تؤخّر العمل، إذ لا يستطيع أيّ عامل يُعاني من البرد والجوع الشديدين أن يعمل أبسط الأعمال، فما بالك بأشقّ الأعمال، من حفرٍ للأرض وتكسير للصخر ونقل للتراب والأحجار!! ولكنه رسول الله ﷺ النبي القائد الذي فجَّر في قلوبهم شعلة الإيمان، وبثّ في سواعدهم عزم اليقين، فشقّوا الأرض وقطعوا الصخر، رغم ما بهم من تعب ونَصَب وبرد وجوع.

عن أنس رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأىٰ ما بهم من النصب والجوع قال:

«اللَّهمّ إنّ العيش عيش الآخرة... فاغفر للأنصار والمهاجرة».

فقالوا مُجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً علىٰ الجهاد ما بقينا أبداً[1]

ـ وكيف لا يعملون ورسول الله ﷺ أُسوتهم وقدوتهم يعمل معهم ويتحمل شدّة البرد وقسوة الجوع أكثر منهم، عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال: شكونا إلىٰ رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين»[2].

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي.

(٢) أخرجه الترمذي.

هكذا كان ﷺ يُؤتسىٰ به، ويواسي كل أفراد الأمة بنفسه وبأخلاقه وشمائله.

ـ ولم يُؤثر ﷺ نفسه بشيء دون أيّ فردٍ من أفراد الأمة حتىٰ بلقمة طعام يسدُّ بها جوعه، فلا يأكل حتىٰ يطعم أصحابه فلا يبقىٰ فيهم جائع، روى جابر رضي الله عنه قال: إنَّا كنّا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدْية شديدة ـ صخرة ـ فجاؤوا إلىٰ النبي ﷺ فقالوا: هذه كُدْيةٌ عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل». ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المِعْول فضرب فعاد كثيباً أهَيْل ـ رملاً لا يتماسك ـ فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلىٰ البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ خمصاً شديداً، ـ جوعاً ـ فعندكِ شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناقٌ ـ أنثىٰ المعز ـ فذبحت العناق وطحنت الشعير حتىٰ جعلنا اللحم في البُرمة.

ثم جئت النبي ﷺ فقلت: طُعَيْمٌ لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال «كم هو؟». فذكرت له فقال: «كثير طيب قل لها لا تنزعي البرمة ولا الخبز من التنور حتىٰ آتي» فقال: «يا أهل الخندق إنَّ جابراً قد صنع سُؤراً فَحَيْهلا بكم» فقام المهاجرون والأنصار، فدخلتُ عليها فقلت: ويحك قد جاء النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، قال: «ادخلوا ولا تَضَاغطوا ـ لا تزاحموا ـ» فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمِّر البرمة ـ يغطّيها ـ والتنور إذا أخذ منه. ويقرِّب إلىٰ أصحابه. فلم يزل يكسر ويغرف حتىٰ شبعوا، وبقي منه فقال: «كُلِي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة»[1].

ـ وكان ﷺ يبشّرهم بالنصر وهو في قلب الخندق يضرب الصخر بمعوله، لا النصر في معركة الأحزاب فقط، إنما النصر على أعظم دول الأرض، علىٰ الفرس والروم، ويخبرهم بأن الإسلام سينتشر ويمتد رُواقُهُ إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها، قال ابن إسحاق في السيرة: وحُدِّثت عن سلمان

---

(١) متفق عليه.

الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليَّ صخرة ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب ورأىٰ شدّة المكان عليّ نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول بَرْقة، ثم ضرب به ضربة أخرىٰ فلمعت تحته برقة أخرىٰ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرىٰ، قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب..؟ قال: «أوَقَدْ رأيت ذلك يا سلمان.؟.» قلت نعم قال: «أما الأولىٰ فإن الله فتح عليَّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليَّ بها المشرق»[1].

وروي عن البراء رضي الله عنه قال: لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك للنبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: «بسم الله ثم ضربه فنشر ثلثها، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحُمْر الساعة»، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن» ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر، فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة»[2].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول في زمن عثمان: (افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلىٰ يوم القيامة، إلا وقد أعطىٰ الله محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك)[3].

ويؤيد ذلك قول الله تبارك وتعالىٰ في سورة الأحزاب: ﴿ وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم، وأرضاً لم تطؤها، وكان الله علىٰ كل شيء قديراً ﴾[4]، فكل فتح في الإسلام حدث بعد وفاة سيدنا رسول الله ﷺ أعطي

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.
(٢) أخرجه أحمد والنسائي.
(٣) انظر إنارة الدجىٰ في مغازي خير الورىٰ.
(٤) الآية ٢٧ من سورة الأحزاب.

النبي ﷺ مفاتيحه من قبلُ حين كان يحفر الأرض ويضرب بالمعول في قلب الخندق، وقد بشّر ﷺ به أصحابه، فكان عَلَماً من أعلام صدق نبوّته وصحة رسالته ﷺ.

ـ وكلما تعاظم الخطب واشتدّ الخوف وازداد الخطر زادت ثقة النبي ﷺ بربِّه، واستبشر بقرب النصر وبشّر أصحابه به. لمَّا نقض بنو قريظة العهد واتفقوا مع الأحزاب علىٰ مساعدتهم في قتال النبي ﷺ والمسلمين، أرسل النبي ﷺ بعض أصحابه إلى بني قريظة ليكشفوا له حقيقة موقفهم، فرجعوا وأخبروه بنقض بني قريظة للعهد، فما كان منه ﷺ إلا أن قال «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»[1].

ـ وعندما وصلت جيوش الأحزاب خرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتىٰ جعلوا ظهورهم إلىٰ جبل سَلْع في ثلاثة آلاف فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، واستعمل علىٰ المدينة ابن أُم مكتوم، وأمر بالذراري والنساء فجُعلوا في الآطام، وهي حصون منيعة كانت داخل المدينة، ولما سمع ﷺ بنقض بني قريظة عهدهم وغدرهم، ردَّ ثلث الجيش إلىٰ داخل المدينة لحماية النساء والأطفال من بني قريظة، ممَّا يدلّ علىٰ حرصه ﷺ علىٰ حماية الضعفاء من الأمة، فسلامتهم مقدَّمة علىٰ سلامة المجاهدين أنفسهم، وعلىٰ المجاهدين أن يكونوا حرماً وحرساً للنساء والأطفال والضعفاء، ولا يجوز لهم أن يتخذوا من النساء والأطفال حِرزاً يختبئون وراءه، وحصناً يتحصنون به، فيعرضونهم بهذا العمل لضرب العدو لهم وفتكه بهم وانتقامه منهم.

ـ ومع عظيم توكله عليه الصلاة والسلام وثقته بربه سبحانه وتعالىٰ فقدْ قام ﷺ بأعلىٰ أعمال الحيطة العسكرية التي يقوم بها كل قائد عسكري بعيد النظر، نظَّم ﷺ أصحابه، فجعل لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة، وعلىٰ الحرس عبَّاد بن بِشْر، وجعل كلمة التعارف بين المسلمين في ليالي الخندق «حم لا ينصرون» ونشر جنوده حول الخندق

---

(١) انظر السيرة لابن هشام.

من الداخل لحراسته ومنع جنود الأحزاب من اجتيازه، وخاصة في النقاط التي يمكن أن يتسلل منها جنود العدو، وكان ﷺ يشارك أصحابه في الحراسة ليلا ويقف في أخطر المواضع، كما كان يتفقد الحرس في الليل بنفسه عليه الصلاة والسلام.

● ويجب أن نعلم أنَّ النبي ﷺ ليس أُسوة حسنة في الفضائل العالية والمناقب الكريمة التي ظهرت له في غزوة الأحزاب فقط، فنزول آية الأُسوة الحسنة بسبب غزوة الأحزاب لا يعني خصوص السبب، إذ من المعلوم أن خصوص السبب لا يعني خصوص الحكم، بل الآية الكريمة تأمرنا أن نقتدي به ﷺ في كل شؤون الحياة، وما من شأن من شؤون الحياة إلا والنبي ﷺ المثل الأعلىٰ والأُسوة الحسنة الطيبة فيه.

فقد جمع الله للنبي ﷺ كل مكارم الأخلاق، حتىٰ إنه سبحانه بعثه عليه الصلاة والسلام ليتمِّم مكارم الأخلاق، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق»[1].

فهو ﷺ القُدوة الطيبة والأُسوة الحسنة في جميع الفضائل الأخلاقية الكريمة والآداب الإنسانية الرفيعة، وكيف لا يكون كذلك وقد أدَّبه الله سبحانه علىٰ عينه، وآواه إلىٰ كنفه ورعايته منذ بداية حياته، وأنزل عليه بعد ذلك قوله الكريم: ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوىٰ ﴾ وقال ﷺ: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»[2] جمع الله تعالىٰ للنبي ﷺ كل الكمالات الأخلاقية التي أنعم الله بها علىٰ الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم أفضل الصلوات والتسليم، ولهذا أمره الله سبحانه في كتابه الكريم أن يقتدي بجميع الأنبياء والمرسلين، ليجمع له سبحانه كل الفضائل التي أكرمهم بها، فقال عزَّ وجلّ: ﴿ وتلك حُجَّتُنا آتيناها إبراهيم علىٰ قومه، نرفع درجاتٍ مَنْ نشاء، إنَّ ربك حكيم عليم ● ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا، ونوحاً هدينا من قَبْلُ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون كذلك نجزي المحسنين ●

---

(١) أخرجه البيهقي في حديث أبي هريرة.

(٢) في سنده ضعف.

وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كلٌّ من الصالحين ● وإسماعيل واليَسَعَ ويونس ولوطاً وكلاًّ فضّلنا على العالمين ● ومن آبائهم وذريّاتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلىٰ صراطٍ مستقيم ● ذلك هُدىٰ الله يهدي به مَنْ يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ● أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ● أولئك الذين هدىٰ الله فبِهُداهم اقتده، قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرىٰ للعالمين ﴾[1].

وهكذا رفع الله سبحانه وتعالىٰ هؤلاء الأنبياء والمُرسلين بحكمته وعلمه درجات عالية رفيعة، ثم أمر النبي ﷺ أن يقتدي به ليحوز كلُّ مناقبهم وفضائلهم، وليكون بفضل الله سبحانه إمامهم وسيّدهم والقدوة الطيبة والأُسوة الحسنة للمؤمنين.

فما أعظم هذه الفضائل وما أشرف هذه الشمائل؛ فضائل وشمائل الصفوة المختارة من خلقه، الذين اختارهم الله سبحانه من جميع الأُمم والشعوب في أزمنة وأمكنة مختلفة ومتباعدة، جمعها الله في زمن واحد ومكان واحد وإنسان واحد، جعله الله رحمة مهداة منه سبحانه لكل العالمين صلى الله عليه وآله وسلم.

● وإنَّ الذين يتأسّون به حقيقة ويستفيدون من أخلاقه وشمائله ﷺ يتّصفون بصفات خاصة، وهي ثلاث صفات ذكرها الله سبحانه في آية الأُسوة الحسنة بقوله: ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾.

تأمَّلْ كيف قرر الله سبحانه واجب التأسِّي برسول الله ﷺ علىٰ جميع المؤمنين بقوله في صدر الآية: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنة ﴾، ثم خصّص بعد هذا التعميم فبيَّن أن شرف التأسِّي به عليه الصلاة والسلام لا يناله إلا مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يرجو الله ﴾: أي يرجو ثواب الله، وهذه هي الصفة

---

(١) الآيات ٨٣ ـ ٩٠ من سورة الأنعام.

الأولىٰ للمتأسين برسول الله ﷺ، فهم يتأسّون به طلباً لثواب الله سبحانه، لا يطلبون أي منفعة دنيوية، إنما أملهم ورجاؤهم في رحمة الله وفضله وثوابه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ واليوم الآخر ﴾ أي يخشَون يوم القيامة الذي فيه جزاء الأعمال، وهذه الصفة الثانية للمتأسِّين برسول الله ﷺ، فهم يخشَون عذاب الله سبحانه يوم القيامة، ومعنىٰ هذا أنهم يجمعون في قلوبهم بين صفتي الرجاء والخوف، فلا ييأسون من رحمة الله ولا يأمنون من عذاب الله سبحانه.

وقد صرّح الله سبحانه في الآية بفعل الرجاء لدلالته علىٰ الرحمة، وأخفىٰ الفعل الذي يدلّ على الخوف والخشية، وذكر ما يدل عليه بقوله: ﴿ واليوم الآخر ﴾، لأن الآية تتحدث عن النبي ﷺ نبي الرحمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وذكر الله كثيراً ﴾ أي أكثر من ذكر الله سبحانه في كل أحواله وأوقاته، فلا يغفل عن الله سبحانه أبداً، وهذه الصفة الثالثة للمتأسِّين برسول الله ﷺ، فالذاكرون الله كثيراً والذاكرات هم الذين شرّفهم الله سبحانه وأكرمهم بالاقتداء برسول الله ﷺ. وقد جاء في سورة الأحزاب بعد ذلك أمر الله سبحانه للمؤمنين بالإكثار من ذكر الله تعالىٰ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبِّحوه بُكْرةً وأصيلاً هو الذي يصلِّي عليكم وملائكتُه ليخرجَكم من الظلمات إلىٰ النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾[1]. قال ابن كثير رحمه الله: (إن الله تعالىٰ لم يفرض علىٰ عباده فريضة إلا جعل لها حدّاً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإن الله تعالىٰ لم يجعل له حدّاً يُنتهىٰ إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً علىٰ تركه)[2].

● ولا بدّ أن أُبيّن موقع آية الأُسوة في سياق الآيات الكريمة التي أنزلها الله سبحانه بشأن غزوة الخندق، فقد وصف الله سبحانه في أول هذه الآيات الهول المرعب والفزع والتزلزل والاضطراب الذي أصاب المؤمنين.

---

(١) الآيات ٤١ - ٤٣ من سورة الأحزاب.

(٢) انظر تفسير ابن كثير.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم... وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾، ثم وصف موقف المنافقين وكيف كانوا يشكِّكون الناس بصدق رسول الله ﷺ، ويشيعون الشوائع السيئة، ويعوقون المؤمنين عن القتال في الآيات ١٢ حتى ٢٠، ثم وسط الخوف والأضطراب والابتلاء الشديد تأتي آية الأُسوة فجراً يتألق في قلب الظلام، وأملاً يثبِّت القلوب المضطربة ويُسكن النفوس القلقة ﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللَّهِ أُسوة حسنة.. ﴾ الآية، وبالتأسِّي برسول الله ﷺ يأتي الثبات والتضحية والاستشهاد، ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب ﴾، ونتيجة للثبات والتصحية والاستشهاد يأتي النصر ﴿ وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال ﴾[1].

وهكذا كانت الأُسوة برسول الله ﷺ سبب النصر في غزوة من أعظم الغزوات أثراً في تاريخ الإسلام.

---

(١) الآيات ٢٥ ـ ٢٧ من سورة الأحزاب.

نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

جاء وصف سيّدنا محمد ﷺ بصِفة النبوّة في سورة الأحزاب في خمسة عشر موضعاً، خاطبه الله سبحانه بخمسة مواضع منها بصفة النبوّة فقال: «يا أيّها النبي».

والنبي هو الذي نبَّأه الله بإنزال الوحي عليه، وقد أكرم الله سبحانه سيدنا محمداً ﷺ بالنبوّة عندما اكتمل له من عمره الشريف أربعين سنة، فجاءه جبريل وهو في غار حِراء بأول آيات القرآن الكريم نزولاً وهي قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[1] جاء ذلك في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عندما تحدَّثت عن بدء نزول الوحي علىٰ النبي ﷺ فقالت:

(أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حِرَاء، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلىٰ أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها، حتىٰ جاءه الحق وهو في غار حِراء.

فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فغطَّني حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء،

---

(١) الآية الأولى من سورة العلق.

فأخذني فغطَّني حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ● خلق الإنسان من علق ● اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ● علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾[1].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده فدخل علىٰ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني» فزمَّلوه حتىٰ ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت علىٰ نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحِم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتَقْري الضيف، وتُعين علىٰ نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتىٰ أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ، ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ـ فقالت له خديجة: يا ابن عمي اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترىٰ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأىٰ، فقال له ورقةُ: هذا الناموس الذي نزَّل الله علىٰ موسىٰ، يا ليتني فيها جَذَعاً ـ شاباً ـ ليتني أكون حيّاً إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أو مُخرِجيَّ هم؟» قال: نعم لم يأتِ رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً)[2].

وفي الحديث دلالة أنه ﷺ ما كان يتوقع أن يصبح نبيّاً ولا أن ينزل عليه وحي من الله سبحانه، وما كانت نفسه الشريفة تتطلَّع إلىٰ مثل هذا المقام، وما كان له ﷺ أي كسب للنبوّة بل جاءته بمحض فضل الله سبحانه عليه، واصطفائه له ﷺ، ومن المعلوم المقرر عند علماء التوحيد أنَّ النبوّة لا تكتسب أبداً وإنما يكرم الله بها مَنْ يشاء من عباده ويختار، قال صاحب جوهرة التوحيد:

ولم تكن نبوّة مكتسبة ولو رقىٰ بالخير أعلىٰ عقبة

---

(١) الآيات ١ ـ ٤ من سورة العلق.

(٢) متفق عليه.

وفي هذا ردٌ علىٰ أصحاب فكرة العبقرية، الذين نعقوا بها كالببغاوات وراء أساتذتهم من المستشرقين، فأنكروا ظاهرة الوحي، وزعموا أن النبي ﷺ كان رجلاً عبقرياً توصل بمَلَكاته ومواهبه إلىٰ ما وصل إليه، جاهلين أو متجاهلين المعجزة القرآنية التي تحدَّتْ جميع أصحاب المَلَكات والمواهب من الإنس والجن، فأعجزتهم وبهرتهم.

إنَّ مَنْ يملك أدنىٰ حسٍّ لغويّ يدرك الفرق الكبير بين كلام الله سبحانه المنزَّل بالوحي علىٰ رسول الله ﷺ، وبين كلامه عليه الصلاة والسلام، ومع أنه عليه الصلاة والسلام أفصح الناس وقد أُوتي جوامع الكَلِم، إلا أنَّ ثَمَّة فرقاً كبيراً وبَوْناً شاسعاً بين كلام الله سبحانه وكلامه عليه الصلاة والسلام، كالفرق بين الخالق سبحانه وبين المخلوق.

وبعد أن أكرمه الله سبحانه بالنبوّة فَتَرَ عنه الوحي وانقطع لفترة من الزمان، لتتطلَّع نفسه الشريفة إليه، وليعلم أن نزول الوحي عليه ليس تابعاً لرغبته وإرادته عليه الصلاة والسلام، إنما نزوله بإرادة الله سبحانه وأمره كما قال عزَّ وجلْ: ﴿ وما تتنزَّل إلا بأمر ربك لـه ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربك نَسِيّا ﴾[1]، ولما أراد الله استئناف نزول الوحي عليه أنزله عليه بقوله الكريم: ﴿ يا أيّها المدَّثِر قُمْ فأنذرْ وربَّك فكبِّر ﴾[2]، فشرّفه ربّه سبحانه بشرف حمل الرسالة بعد أن أكرمه بالنبوّة، ومن أجل إعداد النبي ﷺ لحمل أضخم رسالة وأعظم أمانة أنزل الله عليه سبحانه قـوله الكـريم: ﴿ يا أيّها المزمِّل ● قُم الليل إلا قليلاً ● نصفه أو أنقص منه قليلاً ● أو زِدْ عليه ورتِّل القرآن تَرتيلاً ● إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾[3].

وهكذا عَرف النبي ﷺ طبيعة المهمة التي كلفه الله بها، وظهرت له بواسطة التنزيل الحكيم معالمها، وما كان قبل ذلك يعرف شيئاً عنها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا

---

(١) الآية ٦٤ من سورة مريم.
(٢) الآية ١ ـ ٣ من سورة المدّثر.
(٣) الآيات ١ ـ ٥ من سورة المزمّل.

الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلىٰ صراطٍ مستقيم ● صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألاَ إلىٰ الله تصير الأمور ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[2]، فما كان ﷺ يدري قبل نزول القرآن الكريم شيئاً عن الكتاب والإيمان حتىٰ أنزل الله عليه روحاً من أمره، أحيا الله سبحانه به العالم فنقله من حضيض الجهل إلىٰ ذروة العلم والمعرفة، ومن ظلمات الشرك والكفر إلىٰ نور التوحيد وهدي الإيمان، فأكرمْ به من روحٍ وأعظِمْ به من حياة، يسعد من خلالها الإنسان روحاً وجسداً في تلاؤم وتوافق وتكامل، فلا يعاني من القلق والتمزّق، كما هو حال أكثر الناس اليوم في ظل أنظمة وضعية بعيدة كل البعد عن هدي الأنبياء ووحي السماء، وصدق الله العظيم: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم، واعلموا أنَّ الله يَحُول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾[3].

ولقد امتنَّ الله سبحانه علىٰ نبيّه ﷺ بقوله الكريم: ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوىٰ ● ووجدك ضالاً فهدىٰ ● ووجدك عائلاً فأغنىٰ ﴾[4]، والضلال الذي كان عليه ﷺ قبل أن يكرمه الله بالنبوّة لم يكن ضلال الجاهلية كما زعم بعد الكتّاب المحدَثين ـ غفر الله لهم ـ إنما هو ضلال عن الكتاب والإيمان كما مرَّ معنا في قوله تعالىٰ: ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ فقد كان ﷺ أميّاً لم يقرأ ولم يكتب وما جلس إلىٰ معلّم أو مرشد، وعاش بين قوم أُميّين، وكانت أُميّته ﷺ من صفات كماله لأنها دليل صدق نبوّته كما قال تعالىٰ: ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المُبطلون ﴾[5].

---

(١) الآيات ٥٢ ـ ٥٣ من سورة الشورى.
(٢) الآية ١١٣ من سورة النساء.
(٣) الآية ٢٤ من سورة الأنفال.
(٤) الآيات ٥ ـ ٨ من سورة الضحى.
(٥) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.

وكلّ ما كان عليه أهل الجاهلية من ضلال كان ﷺ أبعد الناس عنه إذ نشأ طاهراً مطهَّراً، لم يدنِّس نفسه بالسجود إلىٰ صنم، ولم يقترف فاحشة أبداً، ولم يخالط أحداً من أهل السوء والضلال ولم يُجالسهم، كما لم يشهد مجلس لهو وطرب، ذهب مرة وهو في العشرين من عمره ليحضر حَفلاً فيه غناء فنام حتىٰ أيقظه حرّ الشمس، حفظه الله سبحانه بحفظه فآواه إلىٰ كنفه، وأحاطه بعين رعايته وعنايته، وخاطبه بعد ذلك بقوله: ﴿ واصْبِر لحكم ربِّك فإنَّك بأعيننا، وسبّح بحمد ربك حين تقوم ﴾[1].

(١) الآية ٤٨ من سورة الطور.

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

جاء وصف رسول الله ﷺ بصفة الرسول بثلاثة عشر موضعاً في سورة الأحزاب، منها قوله تعالىٰ: ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم، ولكنْ رسولَ الله وخاتمَ النبيين، وكان الله بكل شيء عليماً ﴾[1]، وصفة الرسالة ليست خاصة بالنبي ﷺ، فقبله أرسل الله كثيراً من الأنبياء وأكرمهم بمقام الرسالة، فهو ﷺ رسول من المرسلين كما في قوله تعالى: ﴿ يٰس ● والقرآنِ الحكيم ● إنَّكَ لمن المرسلين ● علىٰ صراط مستقيم ﴾[2].

لكن رسالته عليه الصلاة والسلام امتازت علىٰ رسالات من سبقه من المرسلين بعمومها وشمولها ويُسرها وسماحتها، فهو ﷺ مرسل إلىٰ جميع المكلفين من الخلق سواء كانوا إنساً أو جناً، دلَّ علىٰ ذلك صريح قول الله سبحانه: ﴿ تبارك الذي نزَّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[3]، وقوله عزَّ وجلّ أيضاً: ﴿ قلْ يا أيُّها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً، الذي له مُلْك السموات والأرض، لا إلٰه إلا هو يُحي ويُميت، فآمنوا بالله ورسولِه النبيِّ الأُميِّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[4]، وقال ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعطهنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرُّعْب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.
(٢) الآيات ١ ـ ٤ من سورة يٰس.
(٣) الآية ١ من سورة الفرقان.
(٤) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

الصلاة فليصلِّ، وأُحلّت لي الغنائمُ ولم تحلَّ لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة وبُعثت إلىٰ الناس عامّة»[1].

فرسالته عليه السلام أثقل رسالة، وأمانته التي كُلِّف بحملها أعظم أمانة، وقد مرَّ معنا أن التكليف علىٰ قدر التشريف، والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وقد كان من بواكير التنزيل الحكيم علىٰ النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم قولُ العزيز العليم: ﴿ إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾[2]. وقد كلفه الله سبحانه بتبليغ هذه الرسالة العظيمة إلىٰ كلّ مَنْ يستطيع إبلاغه من الإنس والجن، فقال تعالىٰ: ﴿ يا أيّها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعلْ فما بلَّغتَ رسالتَه، والله يَعْصِمُك من الناس، إنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾[3].

وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك، وقام به أتمّ القيام، وبلَّغ جميع ما أرسله الله به، فلم يكتم منه شيئاً، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ﴿ لو كان محمد كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية: ﴿ وتُخفي في نفسك ما الله مُبديه، وتخشىٰ الناس والله أحقّ أن تخشاه ﴾[4]، وفي صحيح البخاري عن وَهْب بن عبد الله السُّوائي قال: قلت لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فَلَقَ الحبة وبرأ النسمة ـ خلق الروح ـ إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقلُ ـ الديّاتُ ـ وفكاك الأسير وألاَّ يقتل مسلم بكافر.

وقال البخاري: قال الزهري: (من الله الرسالة، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم) وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث جابر.

(٢) الآية ٥ من سورة المزمِّل.

(٣) الآية ٦٧ من سورة المائدة.

(٤) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب، والحديث أخرجه الشيخان.

أصحابه نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذٍ: «أيّها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغتَ وأديتَ ونصحتَ، فجعل يرفع إصبعه إلىٰ السماء وينكسها إليهم ويقول: «اللهمّ هل بلّغت»[1]. ونحن أيضاً نشهد يا سيدي يا رسول الله أنّك قد بلّغت الرسالة، وأدّيتَ الأمانة، ونصحتَ الأمة، وجاهدتَ في الله حق جهاده حتىٰ أتاك اليقين.

وقال جلَّ وعلا في شأن تبليغ رسالة الإسلام إلىٰ الجن: ﴿ وإذ صَرَفْنا إليك نَفَراً من الجنِّ يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قُضي وَلَّوا إلىٰ قومهم منذرين ● قالوا يا قومنا إنَّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسىٰ مُصَدِّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقِّ وإلىٰ طريق مستقيم ● يا قومنا أجيبوا داعيَ الله وآمنوا به يَغْفِرْ لكم من ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم ﴾[2]. وقال تعالىٰ: ﴿ وأُوحي إليَّ هذا القرآن لأُنذرَكم به ومَنْ بَلَغ ﴾[3]. وقوله سبحانه: ﴿ ومَنْ بلغ ﴾ أي مَنْ بلغه القرآن الكريم، فكلّ مَنْ بلغه القرآن الكريم فكأنّما رأى النبي ﷺ وسمع منه القرآن الكريم، سواء كان في حياته عليه الصلاة والسلام أو بعد وفاته إلىٰ قيام الساعة.

● وقد نَسَخَتْ رسالته عليه الصلاة والسلام كل الرسالات التي أنزلها الله علىٰ جميع المُرسَلين قبله، فشريعة الإسلام هي الشريعة التي تعبَّد الله بها الناس منذ بعثته عليه الصلاة والسلام إلىٰ قيام الساعة، لا يقبل الله من أحد ديناً وشريعة غيرها، ولهذا قال سبحانه: ﴿ إنَّ الدينَ عند الله الإسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتابَ إلا من بعد ما جَاءهم العلم بَغْياً بينهم، ومن يكفرْ بآياتِ الله فإنّ الله سريع الحساب ﴾[4]، وقال أيضاً:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.
(٢) الآيات ٢٩ ـ ٣١ من سورة الأحقاف.
(٣) الآية ١٩ من سورة الأنعام.
(٤) الآية ١٩ من سورة آل عمران.

﴿ ومن يَبْتَغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقْبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[1].

وقد أقسم ﷺ سبحانه قَسَماً مؤكداً علىٰ أن كل مَنْ يسمع به عليه الصلاة والسلام ولا يؤمن برسالته يكون يوم القيامة من أصحاب النار فقال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني، ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»[2].

● لقد تجاوزتْ رسالته عليه الصلاة والسلام حدود الزمان والمكان والإنسان، فهي رسالة عامة شاملة مطلقة عن أي قيد من القيود، حتى إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كُلِّفوا أن يؤمنوا به ﷺ إن أدركوا زمانه أو بعث ﷺ في زمانهم، وأخذ الله سبحانه العهد من جميع الأنبياء علىٰ هذا، وأخبر به في كتابه الكريم بقوله جلَّ وعلا: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيِّين لَمَا آتيتُكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لمَا معكم لَتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّه، قال أأقررتم وأخذتم علىٰ ذٰلكم إصْري؟ قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ● فمن تولَّىٰ بعدَ ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[3].

قال علي وابن عباس رضي الله عنهما: (ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق علىٰ أمته لئن بُعث محمدٌ وهم أحياء ليؤمُنُنَّ به ولينصرنُّه)[4].

قال ابن كثير رحمه الله: (فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلىٰ يوم الدين، هو الإمام الأعظم الذي لو وُجد في أيّ عصر وُجدَ، لكان هو الواجب الطاعة المقدَّم علىٰ الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لمّا اجتمعوا ببيت المقدس، وكذل هو الشفيع في

---

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران.
(٢) مسلم وأحمد من حديث جابر.
(٣) الآيتان ٨٠ ـ ٨١ من سورة آل عمران.
(٤) انظر تفسير ابن كثير.

المحشر في إتيان الرب جلَّ جلاله لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أُولو العزم من الأنبياء والمُرسلين حتىٰ تنتهي النوبة إليه، فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه)[1].

● وتمتاز رسالته عليه الصلاة أيضاً بالسماحة واليُسْر فليس فيها ما كان في الشرائع قبلها من الآصار والأثقال، لأنه عليه الصلاة والسلام أرسله الله رحمةً للعالمين، فما جعل في رسالته مشقة أو حرجاً علىٰ المكلفين، بل أراد الله بهم اليُسر كما قال في كتابه العزيز: ﴿ يريد الله بكم اليُسر ولا يريد بكم العسر ﴾[2]، ولما أنزل الله سبحانه قوله الكريم: ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض، وإن تُبدُوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، فيغفرُ لمن يشاء ويعذِّب مَن يشاء، والله علىٰ كل شيء قدير ﴾[3]، اشتد ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ فأتَوا رسول الله ﷺ، ثم جَثَوا علىٰ الرُكب وقالوا يا رسول الله: كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصَدَقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ـ أي لا نستطيع أن ندفع خواطر النفس وهواجس القلب والله سيُحاسبنا عن ذلك ـ فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابَين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل: ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال: نعم ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته علىٰ الذين من قبلنا ﴾ قال: نعم ﴿ ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال: نعم ﴿ واعفُ عنّا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ قال: نعم[4] فخفّف الله سبحانه عن هذه الأمة وقضىٰ عزَّ وجلْ أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل، وفي الصحيحين

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٢٨٤ من سورة البقرة.

(٤) أحمد ومسلم من حديث أبي هريرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً».

وتيسيراً منه ﷺ علىٰ أمته كان يكره أن يُسأل عن أشياء في بيانها مشقة وحرج علىٰ الناس بعده، ويقول كما جاء في الصحيح: «إن الله تعالىٰ فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غَيْرَ نسيان فلا تسألوا عنها» ولعلّ هذه الأشياء التي سكت عنها هي التي اختلفت وجهات نظر أئمة الاجتهاد بها، فكان في اختلافهم رحمهم الله، في بعض المسائل الفرعية الفقهية، رحمة للأمة وتيسير عليها، ومظهر من مظاهر مرونة أحكام الشريعة الإسلامية ومسايرتها لمصلحة الإنسان في كل زمان ومكان.

خَاتَمُ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وصف الله سبحانه وتعالىٰ نبيّنا محمداً ﷺ في قوله الكريم من سورة الأحزاب: ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكنْ رسولَ الله وخاتمَ النبيين، وكان الله بكل شيء عليماً ﴾[1].

فهو ﷺ خاتم النبيين كما أنه عليه الصلاة والسلام بالأولىٰ والأحرىٰ خاتم المُرسلين، لأن مقام الرسالة أخصُّ من مقام النبوّة، وكلُّ رسول لا بدَّ أن يكون نبيّاً. ولوصف النبيِّ ﷺ بهذه الصفة عدة دلالات تدلّ علىٰ أن الله سبحانه خصَّ نبيّه الكريم ﷺ بخصائص ومنَّ عليه بميّزات لم يمنَّ بها علىٰ أحد من الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم.

● فقد أتمَّ الله سبحانه نعمته علىٰ خلقه بتمام النبوّة وكمالها ببعثته عليه الصلاة والسلام، إذ بقيت هذه النعمة ناقصة حتىٰ أتمَّها الله سبحانه وجمَّلها وكمَّلها بإرساله خاتم النبيين إلىٰ الخلق أجمعين، وقد بيّن النبي ﷺ هذا الفضل الإلٰهي الذي تفضل الله به عليه بهذا المثل الشريف اللطيف فقال: «مَثَلي في النبيين كمثل رجل بنىٰ داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لَبِنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تمَّ موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللَّبِنة»[2].

● وما دام ﷺ خاتم النبيين فرسالته عليه الصلاة والسلام هي الرسالة

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.

(٢) أحمد والترمذي وقال حسن صحيح من حديث أُبي بن كعب.

التي رضيها الله لجميع الناس حتىٰ قيام الساعة، ولهذا جعلها الله أكمل الشرائع وأتمّها وأيسرها، قال عزَّ وجلّ: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾[1]، وقد نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ في يوم الجمعة يوم عَرَفة، وهو عليه الصلاة والسلام واقف في عرفات عندما حجّ حجة الوداع، قال ابن كثير رحمه الله: (هذه أكبر نِعَم الله تعالىٰ علىٰ هذه الأمة، حيث أكمل الله لهم دينهم فلا يحتاجون إلىٰ دين غيره، ولا إلىٰ نبي غير نبيّهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالىٰ خاتم الأنبياء وبعثه إلىٰ الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحلَّه، ولا حرام إلا ما حرَّمه، ولا دين إلا ما شرَعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلفْ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وتمَّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدِّلَ لكلماتِه وهو السميع العليم ﴾[2]، أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمَّت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبّه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه[3].

● وكلُّ مَنْ يدَّعي بعده ﷺ صفة النبوّة فهو كذَّاب دجّال، فلا نبي بعده عليه الصلاة والسلام، وقد جاء في الحديث الشريف عن جبير بن مُطْعِم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس علىٰ قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[4] وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرسالة والنبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي» قال: فشقّ ذلك علىٰ الناس، فقال: «لكنْ المبشِّرات» قالوا: يا رسول الله وما المبشِّرات..؟ قال: «رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام.

(٣) انظر تفسير ابن كثير.

(٤) الشيخان في الصحيحين.

النبوّة»[1] ويجب أن نعلم أن جزء النبوّة لا يكون نبوّة، ولعلّ الحديث التالي يوضّح المراد من حديث النبي عليه السلام السابق.

عن أنس رضي الله عنه قال: «مَنْ رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتخيل بي، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة»[2]. ووجه تخصيص هذه الأجزاء العددية أنه مكث عليه الصلاة والسلام يوحىٰ إليه في المنام ستة أشهر فإذا نسبتها إلىٰ مدة رسالته، التي عدّتها ثلاث وعشرون سنة، تجد الرؤيا جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة.

● إنه صلى الله عليه وآله وسلم نبيّ الساعة، لأنه خاتم الأنبياء وبعثته قبل قيام الساعة، فليس بينه عليه الصلاة والسلام وبين قيام الساعة نبي آخر، ولهذا قال ﷺ: «بُعثت أنا والساعة كهاتين»، وضمَّ السبَّابة والوسطى[3]. وهذا دليل على أن الزمان الممتد من بعثته ﷺ إلى قيام الساعة، زمن قليل بالنسبة إلى الزمان الذي مرَّ على الخليقة منذ خلقها الله سبحانه.

ومع أنَّه عليه الصلاة والسلام نبيّ الساعة وبعث بين يديها، فهو لا يعلم وقت قيامها، لأن وقت قيامها ممَّا استأثر الله سبحانه بعلمه، فلا يعلمه نبيّ مُرسل ول مَلَك مَقرَّب، قال الله سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿ يسألك الناس عن الساعة، قُلْ إنما عِلمها عند الله وما يدريك لعلّ الساعة تكون قريباً ﴾[4]، وفي حديث عمر بن الخطاب عندما جاء جبريل إلى النبي ﷺ يسأله ليسمع الصحابة ويتعلموا أمور دينهم، قال جبريل: فأخبرْني عن الساعة، قال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[5].

فالقول بأن الله سبحانه وتعالى أطلع النبي ﷺ على وقت قيام الساعة

---

(١) أحمد والترمذي وقال حسن صحيح.
(٢) البخاري وأحمد والترمذي في الشمائل.
(٣) متفق عليه من حديث أنس.
(٤) الآية ٦٣ من سورة الأحزاب.
(٥) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم.

قول لا يستند إلى دليل من الكتاب والسنّة، بل يعارض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة، وليس في الأحاديث النبوية الشريفة التي أخبرَ فيها النبي ﷺ أن الله سبحانه أرّاه ما سيكون إلى قيام الساعة ما يدلّ أنه عليه الصلاة والسلام أعلمه الله سبحانه بوقت قيامها، فرؤية ما يكون في المستقبل شيء، ومعرفة وقت قيام الساعة شيء آخر.

إنَّ علينا أن نقف مع النصوص الصحيحة الصريحة، وإنَّ القول بأنه عليه الصلاة والسلام أعلمه الله سبحانه بوقت قيام الساعة وأمره بإخفائه يعارض النصوص الصريحة الصحيحة، فلا يُعقل أبداً أن يقول النبي ﷺ لجبريل: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» وهو عليه الصلاة والسلام يعلم وقتها. كما لا يعقل أبداً أن يُطْلِع الله النبي ﷺ على وقت قيام الساعة، وقد أنزل عليه قوله الكريم: ﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مُرْساها ● فيمَ أنت من ذِكْراها ● إلى ربِّك مُنْتهاها ● إنما أنت مُنْذِرُ مَنْ يخشاها ﴾[1].

ولا يُقال: يمكن أن يكون إعلام الله سبحانه للنبي ﷺ عن وقت الساعة بعد نزول هذه الآيات وبعد حديث النبي ﷺ مع جبريل، لأن هذا من قبيل الأخبار القطعية المؤكدة في عدة آيات من القرآن المكّي والمدني، والنسخ لا يكون في الأخبار، بل في الأحكام. قال تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مرساها قل إنَّما علمها عند ربي لا يجلِّيها لوقتها إلا هو، ثَقُلَت في السموات والأرض، لا تأتيكم إلا بَغْتة، يسألونك كأنك حفيٌّ عنها، قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[2].

---

(١) الآيات ٤٢ ـ ٤٥ من سورة النازعات.

(٢) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف.

النَّبِيُّ الشَّاهِدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وصف الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ بصفة الشاهد في سورة الأحزاب، بقوله الكريم: ﴿ يا أيُّها النبيُّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1]. وهذه الصفة من الصفات الكريمة، والمنازل الرفيعة التي أكرم الله سبحانه بها النبي ﷺ.

ومعنى الشاهد أنه ﷺ يشهد لله سبحانه بالوحدانية، ويشهد على الناس يوم القيامة بقيام حجة الله سبحانه عليهم، بأن رسالته سبحانه قد بلَغتهم ووصلتهم، وإكراماً للنبي ﷺ أنعم الله سبحانه على أمته عليه الصلاة والسلام بهذه المنزلة أيضاً، قال جلّ وعلا: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، لتكونوا شُهداءَ على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[2].

والوسط: الخيار والأجود، فأُمته عليه الصلاة والسلام خير الأُمم وأجودها وأفضلها، خصّها الله سبحانه بأفضل الرسل وأكمل الشرائع وأتمّها. كما قال عزّ وجلّ: ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حَرَج، مِلَّةَ أبيكم إبراهيم، هو سمَّاكم المسلمين من قَبْلُ، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واعتصموا بالله هو مولاكم فنِعمَ المولى ونِعمَ النصير ﴾[3].

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٧٨ من سورة الحج.

فالنبي ﷺ يشهد على أمته، وأمته عليه الصلاة والسلام تشهد على جميع الأمم يوم القيامة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح يوم القيامة، فيُقال له: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومُه، فيقال لهم: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، فذلك قوله: (وكذلك جعلنكام أمة وسطاً)، والوسط: العدل، فتُدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم»[1].

والشهادة أمانة كبيرة من أعظم الأمانات، ومسؤوليتها خطيرة وجسيمة، وخصوصاً يوم القيامة بين يدي جبَّار السموات والأرض الذي يعلم السر وأخفى، قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلِّ أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ● يومئذٍ يودُّ الذين كفروا وعصَوُا الرسولَ لو تُسوَّى بهم الأرضُ ولا يكتمون الله حديثاً﴾[2].

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ» فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل؟!! قال: «نعم إنِّي أحبّ أن أسمعَه من غيري» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فقال: «حَسْبُك الآن» فإذا عيناه تذرفان!!.

تُرى ما سرُّ دموع النبي ﷺ؟

أهي دموع الخشية من الله سبحانه، إذ تذكر ﷺ مقامه بين يديه سبحانه للشهادة يوم القيامة؟

أم هي دموع رؤية التقصير عن شكر الله سبحانه على النِعَم العظيمة الجليلة التي تفضَّل الله سبحانه بها على النبي ﷺ، ومنها إكرامه عليه الصلاة والسلام يوم القيامة بهذا المقام الجليل الرفيع مقام الشهادة، ولهذا كان ﷺ

---

(١) البخاري والترمذي والنسائي.

(٢) الآيتان ٤١ ـ ٤٢ من سورة النساء.

يقوم في الليل إلى الصلاة حتى تتشقَّق قدماه الشريفتان شكراً لله سبحانه على ما أنعم عليه.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطَّر رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!! فقال: «يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم.

النَّبيُّ المُبَشِّرُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وكذلك وصفه الله سبحانه بصفة النبي المبشِّر، لأنه عليه الصلاة والسلام يبشِّر المؤمنين بعظيم فضل الله عليهم وثوابه ومغفرته، وهو واجب شرَّفه الله سبحانه به وأوجبه عليه بأمر ملزم صريح في قوله تعالىٰ في سورة الأحزاب: ﴿ وبشِّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾[1]. وفضل الله تعالىٰ الكبير يشمل خير الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يتفضل الله علىٰ عباده المؤمنين فيمكن لهم في الأرض وينصرهم علىٰ أعدائهم، فيصبح دين الله ظاهراً، وأمره جلَّ وعلا قاهراً، ويفتح المؤمنون البلاد، ويقيمون العدل بين العباد، ويقتسمون الغنائم، ويحوزون الكرائم، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ ولقد كتبنا في الزَّبور مِنْ بَعْدِ الذِّكر أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ● إنَّ في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ● وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[2]. وذهب بعض المفسرين إلاّ أن المراد أرض الجنة، إلا أن أكثرهم قالوا: هي أرض الأمم الكافرة، يرثها النبي ﷺ وأمته بفتحها، قال الشوكاني رحمه الله: (والظاهر أنَّ هذا تبشير لأمة محمد ﷺ بوراثة أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسِّرين)[3].

وقد مرَّ معنا كيف كان ﷺ يبشِّر أصحابه بالنصر وفتح بلاد الشام والعراق واليمن عندما كانوا يحفرون الخندق، وممَّا أنزل الله سبحانه علىٰ

---

(١) الآية ٤٧ من سورة النساء.

(٢) الآيات ١٠٥ ـ ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني.

النبي ﷺ في سورة الأحزاب قوله الكريم: ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فريقاً تقتلون وتأسِرون فريقاً ● وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضاً لم تطؤها، وكان الله علىٰ كل شيء قديراً ﴾[1]، وأنزل سبحانه أيضاً في سورة الفتح قوله الكريم: ﴿ وعدكم الله مغانمَ كثيرةً تأخذونها، فعجَّل لكم هذه وكفَّ أيدي الناس عنكم، ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً ● وأخرىٰ لن تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله علىٰ كل شيء قديراً ﴾[2]، فقوله تعالىٰ: ﴿وأخرىٰ لن تقدروا عليها﴾ أي وغنيمة أخرىٰ وفتحاً آخر لم تكونوا تقدرون عليها قد يسَّرها الله عليكم، فإنَّه تعالىٰ يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون، واختلف المفسرون في هذه الغنيمة، ما المراد بها..؟ فقال ابن عباس: هي خيبر، وقال الضحاك وقتادة: هي مكة، وقال الحسن البصري: هي فارس والروم، وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلىٰ يوم القيامة[3].

وكل ما أخبر عنه ربنا سبحانه في التنزيل الحكيم، وبشَّر به النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم حدث كما أخبر، ووقع كما بشّر، وظهر أن ذلك من أعلام نبوّته عليه الصلاة والسلام، ومؤيِّدات صدقه وصحة رسالته.

● وقد يقول قائل: وأين هذا من حال المسلمين اليوم!! أموالهم منهوبة، وحقوقهم مسلوبة، وعزّتهم مفقودة!!..

وأقول: المسلمون أنفسهم هم المسؤولون عن هذه الحال التي أصبحوا فيها بسبب تقصيرهم وتخاذلهم وبُعدهم عن شريعة ربهم وسنّة نبيّهم ﷺ، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبِّت أقدامكم ﴾[4]، والقائل أيضاً: ﴿ إن الله لا يغيّر ما بقوم حتىٰ

---

(١) الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ من سورة الأحزاب.
(٢) الآيتان ٢٠ ـ ٢١ من سورة الفتح.
(٣) انظر تفسير ابن كثير.
(٤) الآية ٥٧ من سورة محمد.

يغيّروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من والٍ ﴾[1].

● وأما تبشير النبي ﷺ يوم القيامة فإنَّه ﷺ جاء ليبشِّر المؤمنين بفضل الله ورحمته ومغفرته ودخول الجنة، وما أجملها من بشارة، وما أعظمها من كرامة أُمر عليه الصلاة والسلام أن يبشّر بها المؤمنين، لتقرَّ أعينهم، وتسكن قلوبهم، قال جلَّ وعلا: ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سَلامٌ عليكم، كتبَ ربُّكم علىٰ نفسه الرحمةَ أنَّه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنَّهَ غفورٌ رحيم ﴾[2].

وحتىٰ تكون من أهل البشارة يجب عليك أن تقدِّم التوبة والإنابة، فإذا فعلتَ ذلك فَتُبْتَ عن الذنوب وَأَنَبْتَ إلىٰ علاّم الغيوب فأبشر بقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ إلاَّ مَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً، فأولئك يبدِّل الله سيئاتِهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً ● ومن تاب وعمل صالحاً فَإنَّه يتوب إلىٰ الله متاباً ﴾[3].

وكان ﷺ يأمر أصحابه عندما يرسلهم بالدعوة إلى الله بين الناس أن يبشِّروا الناس برحمة الله وفضله، ففي الحديث الشريف عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ بعثه ومعاذاً إلىٰ اليمن فقال: ﴿ يَسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا ﴾[4].

إنَّ الناس في عصرنا الحاضر وهم يعيشون حياة يغلب عليها القلق والاضطراب والخوف والهمّ والحزن بأشد الحاجة إلىٰ من يبشِّرهم ويسكِّنهم ويطمئنهم، وإنَّ علىٰ الدعاة إلىٰ الله سبحانه أن يعقلوا هذه الحقيقة، ويتأسَّوا برسول الله ﷺ، فيكونوا للناس مبشِّرين لا منفِّرين، ومرغِّبين لا مرهِّبين.

---

(١) الآية ١١ من سورة الرعد.
(٢) الآية ٥٤ من سورة الأنعام.
(٣) الآيتان ٦٩ ـ ٧٠ من سورة الفرقان.
(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم.

النَّبيُّ النَّذِيرُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وكما أنّه ﷺ بشير للمؤمنين، فهو أيضاً نذير للكافرين والفاسقين، ينذرهم بغضب الله سبحانه عليهم، ويتوعَّدهم بعذابه الشديد الأليم، وقد جاء في التنزيل الحكيم آيات كثيرة بوصف أنواع العذاب والنكال الذي أعدَّه الله سبحانه لِأصحاب النار، وفي سورة الأحزاب قال عزَّ وجلْ: ﴿ إنَّ الله لعَنَ الكافرين وأعدَّ لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون وليّاً ولا نصيراً ● يوم تُقَلَّب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾[1].

وقد جاء في بعض الآيات الكريمة الإنذار للمؤمنين والتبشير للكافرين كقوله تعالىٰ: ﴿ وأنذرْ به الذين يخافون أن يُحشروا إلىٰ ربِّهم، ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع لعلّهم يتّقون ﴾[2]. وقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿ بشِّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾[3].

وأقول: الإنذار بالآية الأولىٰ ليس بعذاب الله سبحانه إنما الإنذار بالقرآن الكريم، لأن سياق الآية قوله سبحانه: ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائنُ الله، ولا أعلم الغيبَ، ولا أقول لكم إني مَلَكٌ، إنْ أتَّبع إلا ما يُوحىٰ إليَّ، قل هل يستوي الأعمىٰ والبصير أفلا تتفكرون ﴾[4]، ثم قال بعدها:

---

(١) الآيتان ٦٤ ـ ٦٥ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٥١ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ١٣٨ من سورة إلنساء.

(٤) الآية ٥٠ من سورة الأنعام.

﴿ وأنذرْ به الذين يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم ﴾ أي خوِّف بما أوحىٰ الله إليك المؤمنين بيوم القيامة، لأنهم المتفكرون المنتفعون بوحي الله سبحانه، أما المُعرِضون والجاحدون فأعرض عنهم ولا تحزن عليهم ولا تهتم بهم، ولهذا قال له الحق سبحانه في مقابلة صفتي التبشير والإنذار في سورة الأحزاب: ﴿ وبشِّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ● ولا تُطِع الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم وتوكل علىٰ الله، وكفىٰ بالله وكيلاً ﴾.

وأما قوله سبحانه: ﴿ بشِّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾ فهذا من قبيل التهكُّم بهم زيادة في تحقيرهم وتقبيحهم والإنكار عليهم.

فالنبي ﷺ بشير ونذير، وقد جمع ﷺ في دعوته البشارة والنذارة معاً، فكان ﷺ في أسلوب دعوته متفقاً تماماً مع أسلوب القرآن الكريم في الترغيب والترهيب، وما يفعله بعض الوعّاظ والخطباء من الاعتماد على الترغيب فقط أو على جانب الترهيب والإنذار وتخويف الناس فقط، خطأ جسيم يخالف أسلوب القرآن الكريم وسنّة النبي ﷺ.

الدَّاعي إِلى اللهِ بإِذْنِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الدعوة إلى الله سبحانه مهمة النبي ﷺ الكبرى ووظيفته العظمى، وهي أشرف العبادات وأجلُّ الطاعات وأزكى القربات، قال جلّ وعلا: ﴿ ومَنْ أحسنُ قولاً ممَّن دَعَا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾[1]، وكيف لا تكون كذلك وهي تدعو إلى توحيد الله سبحانه، وإلى عبادته وطاعته وعمارة الأرض بتطبيق شريعته، وتمتاز دعوة النبي ﷺ بأنها دعوة إلى الله بأمر الله سبحانه وإذنه ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ وفي هذا الأمر ما فيه من التشريف للنبي ﷺ، فهو يدعو إلى الله سبحانه بأمر الله.

والدعوة إلى طاعة الله سبحانه وعبادته، دعوة إلى مأدبته سبحانه ورضوانه ودار رحمته وجنته، فلا بدّ للدّاعي أن يأذن له صاحب الدار، ولهذا قال في الآية: ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ ولم يقل: مبشِّراً بإذنه ونذيراً بإذنه، لأن مَنْ يبشِّر الطائعين بفضل الله ورحمته، ويتوعد العاصين والمذنبين بغضبه وعذابه، لا يحتاج إلى إذن من الله سبحانه.

وإنَّ في قوله سبحانه: ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ شهادة رفيعة للنبي ﷺ، تدلّ على إخلاصه عليه الصلاة والسلام في دعوته. فهي دعوة خالصة لله سبحانه، لا تشوبها أية شائبة، إنها دعوة من الله وإلى الله وبالله.

إن على كل مَنْ يدعو إلى الله سبحانه، ويصف نفسه بصفة الداعي إلى الله، أن يجعل دعوته خالصة لله سبحانه وحده، منزَّهةً عن كل أغراض

(١) الآية ٣٣ من سورة فصِّلت.

النفس البشرية وأهوائها، وما أكثر هذه الأغراض وما أخطرها!! بل ما أكثر طرقها إلى داخل النفس وأعماق القلب، وما أخفى هذه الطرق؛ وما أدقّ هذه المسارب!!

لقد كثر في عصرنا الحاضر أدعياء الدعوة إلى الله سبحانه والمتّصفون بها، وأصبحت هذه الصفة تطلق جزافاً دون تمييز على كثير من الناس، مع أنها دعوى خطيرة جداً، ومقامها رفيع، وثمنها باهظ وشاق، لا يطيقه إلّا كبار أولياء الله سبحانه، الذين جاهدوا أنفسهم وقمعوا أهواءهم، إن الدعوة إلى الله سبحانه صفة الأنبياء ووظيفتهم، فلا ينبغي أن يتّصف بها إلّا مَن كان جديراً بها.

الداعي إلى الله سبحانه، هو الذي يدعو إلى الله لا إلى نفسه، ويجمع الناس على الله سبحانه لا على نفسه، فلا يتأثر بكثرة الناس حوله أو قلّتهم ما دام لا يدعو إلى نفسه بل يدعو الناس إلى ربه. همُّه أن يصل إلى رضوان الله سبحانه لا أن يرضى عنه الناس وتكون له مكانة في قلوبهم، فهو يواجه الناس بما يرضي الله سبحانه لا بما يُرضيهم ويمكّن له في قلوبهم، لأن قلبه مع الله لا مع الناس ولا مع نفسه أيضاً.

ما أكثر عبيد السمعة والشهرة في العصر الحاضر؛ الذين لبّس عليهم الشيطان أمرهم، فأوهمهم أو جعلهم يتوهّمون أنهم دُعاة إلى الله سبحانه، وأنهم يعملون لإعلاء كلمة الله، والحقيقة أنهم يعملون من أجل أنفسهم، إرضاءً لشهواتهم وأهوائهم، وصدق ﷺ القائل: «يكون في آخر الزمان رجال يختِلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: ﴿أبي تغترّون، أم عليَّ تجترئون، فبِي حلفت لأبعثنَّ على أولئك منهم فتنة تَذَرُ الحليم حيران﴾[1]، تأمَّل قوله عليه الصلاة والسلام:

يختِلون الدنيا بالدين، أي يعملون بالخداع لأجل الدنيا باسم الدين.

وقوله عليه الصلاة والسلام أيضاً:

(١) الترمذي عن ابن عمر وأبي هريرة.

ألسنتهم أحلى من العسل، لأنهم يتملقون الناس، ويخاطبون الناس بما يرضيهم لا بما يرضي الله سبحانه.

إنَّ معظم الفتن والمشاكل التي تواجه من يُسمُّون أنفسهم دعاة إلى الله، مبعثها من نفوسهم، فلنواجه أنفسنا بهذه الحقيقة قبل أن نُلقي بالمسؤولية على غيرنا، إن الله سبحانه أنزل على النبي ﷺ بعد غزوة أُحُد قوله الكريم: ﴿ أَوَلَمَّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مِثْلَيها قلتُم أنَّى هذا؟! قل هو من عند أنفسكم، إنَّ الله على كل شيء قدير ﴾[1].

وعلينا أن نتدبر عمق هذه المواجهة وشدّتها، ومَنْ هم المحاطبون بها، ولنذكر أنهم خير الناس وأنَّ فيهم رسولَ الله ﷺ خِيرَة الله سبحانه من خلقه وصفوته، ولنتذكر أيضاً أنَّ الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ كانوا طائفة قليلة، ومع كل ذلك قال لهم الله جلّ وعلا: ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾.

لقد أصيبت الدعوة الإسلامية في السنوات الأخيرة، بنكسات كبيرة، فهل وُجِد في المسلمين مَنْ يقول للمسلمين: ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾.

فتِّشوا عن الأسباب في داخل أنفسكم، حاسبوا أنفسكم وحمِّلوها المسؤولية قبل أن تلقوا بالمسؤولية على عدوكم، إن الله سبحانه سلَّطه عليكم بسبب ما في نفوسكم.

الدّاعي إلى الله سبحانه يجب أن يكون على بصيرة من أمر دعوته، عالماً بأُصولها، فقيهاً بأحكامها، يخشى الله سبحانه ولا يجترىء على شريعة الله. وما أكثر الذين يُسارعون إلى إفتاء الناس بما يرضيهم، دون أن يُبالوا بخرق أسوار الشريعة، ومخالفة أحكامَها، ومصادمة قواعدها وأُصولها، إرضاءً للناس.

وعليه أيضاً أن يعيش حقيقة دعوته سلوكاً وأخلاقاً في نفسه ومعاملته. على الداعي إلى الله أن يدعو نفسه أولاً إلى طاعة الله وعبادته قبل أن يدعو غيره؛ ليكون بحقٍّ داعية إلى الله متأسياً بسيد الدعاة ﷺ.

---

(١) الآية ٦٥ من سورة آل عمران.

السِّرَاجُ المُنِيرُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

هذه هي الصفة الخامسة من صفات الكمال التي وصف الله سبحانه بها نبيّه عليه الصلاة والسلام في آية واحدة من سورة الأحزاب: ﴿ يا أيّها النبي إنّا أرسلناك شاهداً، ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً ﴾.

وقد شبَّهه سبحانه بالسراج المنير، لأنه عزّ وجلّ جلا به عليه الصلاة والسلام ظلمات الجهل والشرك، فهدى به الضالّين، وأرشد الحائرين. وقد جاء التشبيه بالسراج المنير لا بالشمس، مع أن الشمس أشدّ إضاءة من السراج، لأن الشمس تغيب في الليل ويذهب نورها، أما نور النبي ﷺ فلا يغيب، فأنواره ساطعة لا تنطفىء حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

وقد وصفه الله سبحانه بصفة النور في أكثر من آية في القرآن الكريم، قال جلّ وعلا في سورة المائدة: ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير. قد جاءكم من الله نورٌ وكِتابٌ مبين. يهدي به الله مَن اتبعَ رضوانه سُبُلَ السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[1]، قال الشوكاني رحمه الله: قوله: ﴿ قد جاءكم من الله نور ﴾ جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمداً ﷺ قد تضمنت بعثته فوائد غير ما تقدَّم من مجرد البيان، قال الزجَّاج: النور محمد ﷺ، وقيل: الإسلام. والكتاب المبين: القرآن[2].

---

(١) الآيتان ١٥ ـ ١٦ من سورة المائدة.

(٢) انظر فتح القدير.

وقد جمع الله سبحانه للنبي ﷺ النور المعنوي والنور الحسِّي، فنور هدايته عليه الصلاة والسلام أضاء للعالمين، وهو النور المعنوي، ونور جماله عليه الصلاة والسلام، أجمع عليه كلُّ مَنْ رآه وتشرَّف بالنظر إليه عليه الصلاة والسلام.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: (ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ!! كأن الشمس تجري في وجهه)[1] وقال هند بن أبي هالة رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ فَخْماً مُفَخَّماً، يتلألأ وجهه تلؤلؤ القمر ليلة البدر)[2].

وسأل رجل البرّاء بن عازب رضي الله عنه: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال: (لا، مثل القمر)[3] وقال كعب بن مالك رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر)[4].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: (رأيت رسول الله ﷺ في ليلة أصْحِيان، وعليه حُلَّة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر)[5].

وعن ابن عباس رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه)[6].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم فيها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من التراب، وإنّا لفي دفنه، حتى أنكرنا قلوبنا)[7].

---

(١) الترمذي في الشمائل.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) صحيح البخاري.
(٥) الترمذي في الشمائل.
(٦) الترمذي في الشمائل، وأخرجه الدارمي والطبراني أيضاً والثنايا: مقدمة الأسنان.
(٧) أحمد في المسند والترمذي في الشمائل.

وفي هذا دليل على أنَّ أنواره الحسيّة ﷺ أفاضها الله سبحانه على الصحابة رضي الله عنهم، وأنهم تذوَّقوا هذه الأنوار وسعدوا بها، ولما توفي ﷺ شعروا بفقدانها، فأظلمت الدنيا بأعينهم حتى أنكروا قلوبهم رضي الله عنهم.

إنَّ النبي ﷺ بشر كسائر البشر، إلَّا أن الله سبحانه اصطفاه من سائر البشر، ونوَّره خَلْقاً وخُلُقاً، ونوَّر به عليه الصلاة والسلام العالمين.

هذا الذي علينا اعتقاده بالنبي ﷺ، وأما الزعم بأنه ﷺ خُلق من نور، فلم يقم دليل صحيح عليه، بل إنَّ هذا القول يصادم صريح قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قل إنَّما أنا بشر مثلُكم، يُوحى إليَّ إنَّما إلٰهكم إلٰه واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[1]، وقوله تعالى أيضاً: ﴿ قل ما كنتُ بِدْعاً من الرسل، وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم، إن أتّبع إلا ما يُوحى إليَّ، وما أنا إلّا نذيرٌ مبين ﴾[2]، فشأنه عليه الصلاة والسلام مثل شأن مَنْ سبقه من الرُسُل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، وهم بشر كسائر البشر، خلقهم الله سبحانه ممّا خلق منه سائر البشر.

كما أن هذا القول يصادم أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: «خُلقت الملائكةُ من نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلق آدم ممَّا وصف لكم»[3].

فالملائكة هم الذين خلقهم الله سبحانه من نور، والنبي ﷺ ليس من الملائكة، إنَّه عليه الصلاة والسلام من البشر، ولكن الله سبحانه جمَّله وكَمَّله، ونوَّره ونوَّر به، وفضّله على جميع المخلوقات ﷺ.

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٩ من سورة الأحقاف.

(٣) مسلم في صحيحه من حديث عائشة.

الفصل الثاني

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

تمهيد

النبي القائد ﷺ

النبي ﷺ خير الأزواج

من القديم والحديث

زمن التخيير

سبب التخيير

الاختيار

تكريم الله سبحانه لأزواج النبي ﷺ

التكريم الأول: (أمهات المؤمنين)

التكريم الثاني: الواهبات أنفسهنّ ـ زيد وزينب

التكريم الثالث: الخطاب الأول، الخطاب الثاني ـ صوت المرأة ـ المرأة والعمل ـ تبرّج النساء ـ صلاة المرأة في المسجد.

أهل البيت

مهبط الوحي

تمهيد

بعد أن تحدّثتْ سورة الأحزاب عن غزوة الخندق، وبعد أن بيّنت مواقف النبي ﷺ والمؤمنين فيها، وبيّنت مواقف كلٍّ من المنافقين ويهود بني قريظة، وتحدّثت عن غدرهم وخيانتهم ومصيرهم؛ التفتت آيات السورة مباشرة تنادي النبي ﷺ هذا النداء وتأمره أن يخيِّر أزواجه رضي الله عنهنّ هذا التخيير: ﴿يا أيُّها النبي قل لأزواجك: إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنْيا وزينتها، فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جميلاً ● وإن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ فإنَّ الله أعدَّ للمُحْسِنَاتِ منكنَّ أجراً عظيماً﴾[1]، ومن ثَمَّ استمر سياق الآيات يتحدّث عن أزواج النبي ﷺ، فيبيّن مكانتهنّ في المجتمع الإسلامي، وما يجب عليهنّ رضي الله عنهنّ من التأدّب بأعلى الآداب والتحلّي بأكمل الصفات.

ولا بدَّ أن يثير هذا الانتقال في الحديث من موضوع الجهاد إلى موضوع الأسرة والأزواج فضولَ القارىء لمعرفة الحكمة من ذلك، ولله سبحانه في كتابه حِكَم وأسرار لا يحيط بها علماً إلّا الله الواحد القهّار.

والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنَّ الإجابة عن هذا التساؤل موجودة في الموضوع الأساسي لسورة الأحزاب، وقد سبق أن قلتُ في مقدمة الكتاب: إن موضوع السورة الأساسي يدور حول شخصية النبي ﷺ، وبيان بعض صفاته وكمالاته التي أكرمه الله سبحانه بها، فكمَّله وجمَّله عليه الصلاة والسلام، وجعله الأسوة الحسنة للمؤمنين.

---

(١) الآيتان ٢٨ ـ ٢٩ من سورة الأحزاب.

النَّبِيُّ القَائِدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تحدّثت السورة أولاً عن بعض جوانب شخصية النبي ﷺ العسكرية في ميدان الجهاد، فإذا بنا أمام قائد عسكري أعطاه الله سبحانه كل الصفات العالية الرفيعة للقائد الذي يقود جنوده إلى النصر في أصعب المواقف وأخطرها وأشدّها حَرَجاً.

قائد لا يستبدّ برأيه، بل يستشير جنوده ويأخذ برأي أحدهم عندما يراه حقاً ومفيداً كما مرَّ معنا.

قائد متواضع يشارك جنوده كل أعمال القتال من تحصين وحراسة ومواجهة للعدو، ويتحمل معهم كل مشقّات القتال من برد وجوع وتعب ونَصَب كما سبق بيانه.

قائد يبثّ في نفوس جنوده الثقة بنصر الله، فيملأ قلوبهم حماسة، ويشدّ عزائمهم، ويثبّت نفوسهم في مواقف تصطرب فيها القلوب وتتزلزل النفوس حتىٰ تبلغ القلوبُ الحناجرَ[1].

قائد ذو نظر بعيد وتفكير سديد، لا يدع فرصة مهما كانت إلا ويستفيد منها ليهزم أعداءه وينتصر عليهم، حتىٰ إنه لما جاءه نُعَيم بن مسعود الأشجعي مسلماً يعرض مساعدته علىٰ النبي ﷺ قال له عليه الصلاة والسلام: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنّا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»[2].

(١) انظر تفصيل هذا في: الأسوة الحسنة، من هذا الكتاب.

(٢) انظر سيرة ابن هشام.

قائد قلبه موصول بالله سبحانه يأخذ بأعلىٰ أسباب الحيطة العسكرية، وفي الوقت نفسه يسأل الله النصر متوكلاً عليه سبحانه وحده، فما أكثر ما كان ﷺ يصلّي لله في ليالي حصار الأحزاب، يدعو الله سبحانه ويستمدّ منه النصر والتأييد، ويعلّم جنوده الثقة بالله والتوكّل علىٰ الله وحده قائلاً لهم: «قولوا اللّهمَّ استر عوراتنا، وآمن رواعاتنا»[1].

قائد جمع بين صفتي الرحمة والحزم يضع الرحمة في مواضعها وعند مَنْ يستحقها، ويضع الحزم في مواضعه وعند مَنْ يستحقه، بلغ من رحمته عليه الصلاة والسلام أنَّ جندياً من جنوده كلَّفه ﷺ بمهمة استطلاعية داخل صفوف العدو في ليلة باردة من ليالي الخندق، فعاد الجندي من مهمته وهو يرتجف من شدة البرد، وكان ﷺ يصلّي فأشفق عليه ولم ينتظر حتىٰ ينتهي من صلاته بل أشار إليه أن يدنو منه، فلما دنا منه أسبل عليه الصلاة والسلام عليه شملته، ـ عباءته ـ وتركه نائماً فيها حتىٰ أصبح[2].

كما بلغ من حزمه عليه الصلاة والسلام أنه أمر بقتل جميع رجال بني قريظة الذين نقضوا عهدهم معه ﷺ، وحاولوا الغدر بالمسلمين، وانحازوا للأحزاب المشركين.

* * *

(١) انظر إنارة الدجىٰ في مغازي خير الورىٰ.

(٢) انظر حديث حذيفة بن اليمان عندما أرسله ﷺ ليكشف خبر المشركين، والحديث في صحيح مسلم.

النَّبِيُّ القَائِدُ ﷺ خَيْرُ الأَزْوَاجِ

ثم انتقلت السورة مباشرة من ميدان الجهاد إلىٰ ميدان الأسرة لتحدّثنا عن خير الأزواج، عن رسول الله ﷺ، الزوج الذي كان يقول: «خيرُكم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[1]، ويقول أيضاً: «إنَّ من أكمل المسلمين إيماناً أحسنهم خَلقاً وألطفهم بأهله»[2] فتكشف لنا آيات السورة كيف كان النبي ﷺ يعامل زوجاته، وتكشف لنا أيضاً عن نصر كبير آخر حقّقه النبي ﷺ في حياته الاجتماعية مع زوجاته، نصر لا يقل أهمية عن النصر في معركة الخندق، بل يفوقه أهميه لأنه جرىٰ في ميدان الجهاد الأكبر، حيث يجاهد الإنسان نفسه وميوله وشهواته.

وما أكثر الأزواج الذين ينهزمون في هذا الميدان ويسقطون صرعىٰ أهوائهم وشهواتهم، ولهذا تكرر في الآيات القرآنية الكريمة التحذير من الافتتان بالأزواج والأولاد، فإن كثيراً منهم يدفعون الإنسان إلىٰ معصية الله والتعرّض لسخطه وغضبه، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادِكُمْ عَدُوّاً لكم فاحذروهم، وإن تَعْفُوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ● إنما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ والله عنده أجر عظيم ﴾[3].

وقوله أيضاً: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُلْهِكم أموالُكم ولا أولادُكم عن

---

(١) رواه الترمذي وحسّنه.

(٢) رواه الترمذي وحسّنه.

(٣) الآيتان ١٤ ـ ١٥ من سورة التغابن.

ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾[1].

وقوله أيضاً: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون ● واعلموا أنَّما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾[2].

كلّ هذه الآيات تدلّ علىٰ خطورة ميدان الأُسرة وشدة الفتنة التي يتعرض لها الإنسان فيه.

ولقد أحرز النبي ﷺ في هذا الميدان نصراً عظيماً كبيراً تكشف عن مداه آيتا التخيير، إذا أضفنا إليهما بيان أسباب هذا التخيير وزمنه والنتائج التي ترتبت عليه.

مِنَ القَدِيمِ وَالحَدِيث

ويجدر بي بعد أن بيَّنت رأيي في هذا الموضوع أن أعرض للقارىء الكريم آراء بعض أهل العلم لعلّه يجد فيها موافقة للصواب أكثر من رأيي، مفوِّضاً علم الحقيقة لله سبحانه، فهو أعلم بكلامه وأسرار كتابه.

● من القديم: العلاّمة الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره المسمّىٰ التفسير الكبير، اعتنىٰ كثيراً ببيان الصلة بين الآيات والسور والكشف عن الحكمة لمواقع الآيات في السور، قال عند قوله تعالىٰ: ﴿ يا أيُّها النبي قُلْ لأزواجك... ﴾ الآية.

(وجه التعلُّق هو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة علىٰ خلق الله، ثم إنّ الله تعالىٰ لما أرشد نبيّه إلىٰ ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله: ﴿ يا أيّها النبي اتَّقِ الله ﴾، ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة، وبدا بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة ولهذا قدَّمهن بالنفقة[3].

---

(١) الآية ٩ من سورة المنافقون.

(٢) الآيتان ٢٧ ـ ٢٨ من سورة الأنفال.

(٣) انظر التفسير الكبير ٥/٢٠٥.

ولكني لا أرىٰ في آيتي التخيير المعنىٰ الذي ذهب إليه الفخر الرازي رحمه الله، فليس فيهما استجابة لمطالب أمهات المؤمنين بتوسيع النفقة عليهنَّ، بل هما على العكس جاءتا تخيِّرهنَّ بين الرضا بمعيشتهنّ مع رسول الله ﷺ أو طلاقهنّ إذا تَمَسْكنَ بمطالبتهنّ بالتوسع في النفقة.

● ومن الحديث: سيد قطب رحمه الله من الكتَّاب المحدَثين، الذين اهتموا ببيان مواضيع السور والصلة بين آيات السورة الواحدة في الموضوع، في كتابه: في ظلال القرآن الكريم. وقد قال رحمه الله في شأن موضوع سورة الأحزاب والصلة بين آياتها ما يلي: (هذه السورة تتناول قطاعاً حقيقياً من حياة الجماعة المسلمة، في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرىٰ إلىٰ ما قبل صلح الحديبية، وتصوِّر هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة تصويراً واقعياً، وهي مزدحمة بالأحداث التي تشير إليها خلال هذه الفترة، والتنظيمات التي أنشأتها وأقرّتها في المجتمع الإسلامي الناشىء)[1].

فعلاقة آيتي التخيير بما قبلها من آيات السورة في موضوع غزوة الأحزاب، علاقة أحداث جمعها زمن واحد ووقعت في فترة واحدة في رأي سيد قطب رحمه الله، فهو يرىٰ أن السورة تعالج موضوعات فترة معينة من حياة الجماعة الإسلامية تمتد من غزوة بدر إلىٰ ما قبل صلح الحديبية.

لكني أرىٰ أنَّ سيداً رحمه الله لم يُوفّق إلىٰ الصواب في هذا الموضوع؛ لأن التخيير ونزول آيتيه لم يكن من أحداث هذه الفترة التي حددها سيد رحمه الله لموضوعات السورة، بل كان التخيير بعد هذه الفترة بزمن كبير، فهو من الأحداث التي وقعت بعد فتح مكة، كما سأُبيِّنه إن شاء الله عندما أتحدث عن زمن التخيير.

فهو بعد الفترة التي حددها سيد قطب لموضوعات سورة الأحزاب، والتي وصفها رحمه الله بقوله: ﴿ولهذه الفترة التي تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سِمَة خاصة، فهي الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح

---

(١) انظر في ظلال القرآن تفسير سورة الأحزاب.

الشخصية المسلمة في حياة الجماعة وفي حياة الدولة، ولم يتم استقرارها بعد ولا سيطرتها الكاملة، كالذي تمَّ بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، واستتباب الأمر للدولة الإسلامية وللنظام الإسلامي)[1].

لكن حادثة التخيير لم تقع في الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة، بل حدثت بعد فتح مكة في الفترة التي استتبّ الأمر فيها للدولة الإسلامية والنظام الجديد، والدليل علىٰ ذلك ما يأتي.

زَمَنُ التَّخيير

عندما نزلت آيتا التخيير كان جميع أُمهات المؤمنين اللواتي أكرمهنّ الله بزواج النبي ﷺ منهنَّ عنده ﷺ، يعشنَ معه، عدا السيدة خديجة رضي الله عنها التي توفيت قبل الهجرة، روىٰ ابن كثير عن عكرمة تلميذ ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش:- عائشة، وحفصة، وأُم حبيبة، وسَوْدة، وأُم سلمة -رضي الله عنهنّ- وكان تحته صفيّة بنت حُيَيْ النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهنّ وأرضاهنّ أجمعين)[2].

ومن المعلوم أنَّ السيدة ميمونة رضي الله عنها هي آخر مَن تزوج ﷺ، وقد تزوَّجها عليه الصلاة والسلام في العام السابع من الهجرة أثناء عمرة القضاء، وقد اختلف العلماء في حكم زواج المُحْرم تبعاً لاختلاف الرواية عنه ﷺ عندما تزوج بالسيدة ميمونة، هل كان ﷺ حلالاً أم كان محرماً، وصحَّت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنه ابن أخت السيدة ميمونة أنه ﷺ تزوجها وهو محرِم، وبنىٰ بها ﷺ بسَرِف، وهو موضع يبعد عن مكة ستة أميال في طريق عودته إلى المدينة بعد إكمال مناسك العمرة)[3].

---

(١) انظر في ظلال القرآن تفسير سورة الأحزاب.

(٢) انظر تفسير ابن كثير.

(٣) انظر كتاب عبد الله بن عباس المؤلف.

وهذا يدل علىٰ أن آيتا التخيير نزلتا بعد العام السابع من الهجرة، ويؤكد أن التخيير كان بعد فتح مكة حديث عمر بن الخطاب الذي رواه عنه ابن عباس رضي الله عنهما، وإلىٰ القارىء الكريم الحديث بأكمله لأنه يتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع التخيير ومعاملة النبي ﷺ لأزواجه رضي الله عنهنّ.

روىٰ الإمام أحمد عن ابن عباس قال: (لم أزل حريصاً علىٰ أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالىٰ: ﴿إن تتوبا إلىٰ الله فقد صَغَت قلوبكما﴾ حتىٰ حجَّ عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرَّز ثم أتاني، فسكبت علىٰ يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين: من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالىٰ: ﴿إن تتوبا إلىٰ الله فقد صغت قلوبكما﴾؟ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس ـ قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه ـ قال: هما: «عائشة، وحفصة» قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال:

كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدِمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلَّمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي، فغضبتُ يوماً علىٰ امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجِعْنَه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت فدخلت علىٰ حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم؟ وتهجره إحداكنّ اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكنّ وخسر، أفتأمن إحداكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول الله ﷺ، ولا تسأليه شيئاً، وسَليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنَّك أن كانت جارتك هي أوسم ـ أي أجمل ـ وأحبّ إلىٰ رسول الله ﷺ منك ـ يريد عائشة ـ.

قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول علىٰ رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدث أن غسَّان تُنْعِل الخيل لتغزوَنا، فنزل صاحبي يوماً،

ثم أتىٰ عشاء، فضرب بأبي، ثم ناداني فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك، أجاءت غسان؟ قالا: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلَّق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتىٰ إذا صلَّيت الصبح شددتُ عليَّ ثيابي ثم نزلت، فدخلت علىٰ حفصة وهي تبكي، فقلت: أطَلقكنَّ رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود، فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إليَّ فقال: قد ذكرتك له فصَمَتَ، فانطلقت حتىٰ أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام، فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليَّ فقال: فقد ذكرتك له فصمت، فخرجت فجلست إلىٰ المنبر، ثم غلبني ما أجد، فأتيتب الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليَّ فقال: ذكرتك له فصمت فوليت مُدبِراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل قد أذن لك.

فدخلت فسلَّمت علىٰ رسول الله ﷺ، فإذا هو متكىء على رمال حصير وقد أثَّر في جنبه، فقلت: أطَلقتَ يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليَّ، وقال: «لا» فقلت: الله أكبر، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلَّمن من نسائهم، فغضبت علىٰ امرأتي يوماً، فإذا هي تُراجعني، فأنكرتُ أن تراجعَني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليُراجعنه وتهجره إحداهنّ اليوم إلىٰ الليل، فقلت: قد خابَ من فعلت ذلك منكنّ وخسرت، أفتأمنَّ إحداكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ﷺ.

فقلت: يا رسول الله قد دخلت علىٰ حَفْصة، فقلت لا يغرنَّك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحبّ إلىٰ رسول الله ﷺ منك، فتبسّم أخْرىٰ.

فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: «نعم» فجلست فرفعت رأسي في

البيت فوالله ما رأيت شيئاً في البيت شيئاً يردُّ البصر إلا أُهُب[1] معلقة، فقلت: ادعُ الله يا رسول الله أن يوسِّع علىٰ أمتك، فقد وسَّع علىٰ فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوىٰ جالساً وقال: «أفي شكٍ أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»[2].

وقول عمر رضي الله عنه في الحديث: (وكنا نتحدَّث أن غسَّان تنعل الخيل لتغزونا) يدل علىٰ أن آيتي التخيير نزلتا قبل غزوة تبوك أي في العام التاسع من الهجرة

سَبَبُ التَّخْيِيرِ

تدلّ آيتا التخيير نفسيهما على سبب نزولهما، إذ كان أزواج النبي ﷺ يشاركنَه عليه الصلاة والسلام شدّة العيش وشَظَف الحياة التي كان عليه الصلاة والسلام يحياها، ولما أعزَّ الله نبيّه عليه السلام وأظهر دينه بعد فتح مكة، وكثرت الغنائم ووسَّع الله علىٰ المسلمين، طلب زواج النبي ﷺ منه عليه الصلاة والسلام أن يوسِّع عليهنَّ في العيش، ولكنه عليه الصلاة والسلام اختار لنفسه وأزواجه معيشة الكفاف، وبقي محافظاً علىٰ معيشته الأولىٰ التي كان عليها منذ بدأ يدعو إلىٰ الله سبحانه.

وليس اختياره عليه الصلاة والسلام لهذه المعيشة عجزاً عن حياة المتاع، فقد عاش عليه الصلاة والسلام حتىٰ دانت أرض العرب وأطرافها بالإسلام وكثرت الغنائم والهدايا والهبات، إنما اختار هذه المعيشة استعلاءً علىٰ متاع الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله، ليكون ذلك عَلَماً من أعلام نبوّته ومؤيداً من مؤيدات صدقه وإخلاصه، فلم تكن دعوته إلا دعوة ربانيَّة خالصة لله سبحانه، مبرَّأة عن أيّ حظ من حظوظ الدنيا، ولو كان للنبي ﷺ في دعوته أدنىٰ مطلب دنيوي لوسَّع في معيشته واستجاب لطلب أزواجه، ولكنها النبوّة في سموِّها ورِفعتها وصفائها.

---

(١) جمع إهاب: الجلد الذي لم يُدبغ.
(٢) أخرجه البخاري أيضاً.

ولقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عندما يدعون الناس إلىٰ الله سبحانه يعلنون للناس في أول الدعوة، بصراحة ووضوح، أنهم لا يريدون من هذه الدعوة أجراً مادياً ولا كسباً دنيوياً، إنما يدعون إلىٰ الله ومن الله ولله سبحانه، لقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً، إنْ أجريَ إلا علىٰ الله ﴾[1]، وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ وما أسألكم عليه من أجْرٍ، إنْ أجريَ إلا علىٰ ربّ العالمين ﴾[2]، وقال صالح أيضاً لقومه: ﴿ وما أسألكم عليه من أجر، إنْ أجريَ إلا علىٰ ربّ العالمين ﴾[3]، ولوط أيضاً قال نفس الكلمة: ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ، إن أجريَ إلا علىٰ ربِّ العالمين ﴾[4]، ونبيّ الله شُعيب عليه السلام قال أيضاً مثل ما قال من قبله من الأنبياء: ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ، إنْ أجريَ إلا علىٰ ربّ العالمين ﴾[5].

ونبيّنا وسيّدنا محمد ﷺ أمره الله سبحانه أن يقول مثل ما قال الأنبياء قبله: ﴿ قُلْ ما أسألكم عليه من أجرٍ إلاّ مَنْ شاء أن يتخذَ إلىٰ ربّه سبيلاً ﴾[6]، وما أكثر ما أدَّب الله سبحانه النبي عليه الصلاة والسلام بمثل قوله الكريم: ﴿ ولقد آتيناكَ سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ● لا تَمُدَنَّ عينيك إلىٰ ما متّعنا به أزواجاً منهم، ولا تحزنْ عليهم، واخفضْ جناحك للمؤمنين ﴾[7]، وقوله سبحانه أيضاً: ﴿ فاصبر علىٰ ما يقولون، وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن أناء الليل فسبّح وأطراف النهار لعلّك ترضىٰ ● ولا تَمُدَنَّ علينيك إلىٰ ما متّعنا به أزواجاً منهم زَهْرةَ الحياة الدنيا لنفتنَهم فيه، ورزقُ ربّك خير وأبقىٰ ● وأْمُرْ أهلَك بالصلاة واصْطَبِرْ

---

(١) الآية ٢٩ من سورة هود.
(٢) الآية ١٢٧ من سورة الشعراء.
(٣) الآية ١٤٥ من سورة الشعراء.
(٤) الآية ١٦٥ من سورة الشعراء.
(٥) الآية ١٨٠ من سورة الشعراء.
(٦) الآية ٥٧ من سورة الفرقان.
(٧) الآيتان ٨٧ ـ ٨٨ من سورة الحجر.

عليها، لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوىٰ ﴾[1].

أفَبعد هذا الأدب الربَّاني الكريم يمدّ النبي ﷺ عينيه إلىٰ شيء من متاع الدنيا؟ اللهمّ لا.

والجدير بالذكر هنا أنَّ الآيات الكريمة التي سبق ذكرها توجَّه النبي ﷺ توجيهاً كريماً إلىٰ البعد عن فضول العيش وزينة الدنيا ولا تلزمه بذلك إلزاماً، فليس ثَمَّة مانع شرعي يمنع النبي عليه الصلاة والسلام من التوسُّع في المعيشة ضمن حدود ما أحلّ الله سبحانه، القائل: ﴿ يا أيُّها الرُسُل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنِّي بما تعملون عليم ﴾[2].

ولا بدّ لنا حتىٰ يظهر لنا سبب مطالبة أُمهات المؤمنين النبي ﷺ بأن يوسِّع عليهنَّ في المعيشة أن نعرض صوراً من صور المعيشة التي كنَّ عليها معه ﷺ.

ـ أما مساكنهنَّ رضي الله عنهنّ فقد كنَّ يسكنَّ مع رسول الله ﷺ في حجرات صغيرة، بنيت من جريد النخل، مستورة أبوابها بمُسُوح الشَّعَر، مصفوفة تسع حجرات شرقي المسجد وشماليِّه وقبليِّه، وأبواب الحجرات التسعة شارِعة إلى المسجد، قال الحسن البصري رحمه الله: (كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان، فأتناول سقفها بيدي)[3].

وحينما أمر الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي بهدم الحجرات وضمّها إلىٰ المسجد قال سعيد بن المسيب رحمه الله: (ليتها تُرِكت فلم تهدم، حتىٰ يقتصر الناس عن البناء، ويروا ما رضي الله لنبيّه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده)[4].

ـ وأما أثاث الحجرات فقد وصفت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها

---

(١) الآيات ١٣٠ ـ ١٣٢ من سورة طه.
(٢) الآية ٥١ من سورة المؤمنون.
(٣) انظر كتاب عائشة للمؤلف.
(٤) المرجع نفسه.

فراش النبي ﷺ فقالت: (إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدَماً حشوه ليف)[1]. ولما أهدت لها امرأة أنصارية، بعد أن رأت فراش رسول الله ﷺ، فراشاً حشوه صوف قال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا يا عائشة؟» قالت يا رسول الله: فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك، فذهبت فأرسلت إليّ بهذا. فقال: «ردِّيه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرىٰ الله معي جبال الذهب والفضة»[2].

ولم يكن في حجرة السيدة مصباح تستضيء به، دلَّ علىٰ ذلك حديثها التالي: (كنت أنام بين يديّ رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجليَّ، فإذا قام بسطتهما) قالت: (والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح)[3]، وسبب عدم وجود المصابيح عدم وجود زيت أو دهن للمصباح، وقد أجابت السيدة رضي الله عنها مَنْ سألها عن ذلك قائلة: لو كان عندنا دهن مصباح لأكلناه[4].

ـ وأما معيشتهنّ رضي الله عنهنّ فقد وصفتها السيدة عائشة لابن أختها عُرْوة فقالت: (ابن أختي، إنْ كنَّا لننظر إلىٰ الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهِلّة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار) فقال عروة: (يا خالة ما كان يُعيِّشكم؟!) قالت: (الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهما فيسقينا)[5].

ولما سُئِلت رضي الله عنها: أنهىٰ النبي ﷺ أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث؟ قالت: (ما فعله إلا في عامٍ جاع الناس فيه، فأراد أن يُطعِم الغنيُّ الفقيرَ، وإن كنّا لنرفع الكُراع فنأكله بعد خمس عشرة) قيل: ما

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البيهقي عن عائشة.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أحمد والطبراني انظر كتاب السيدة عائشة للمؤلف إذا أردت التوسّع في هذا الموضوع.

(٥) البخاري في الصحيح.

اضطركم إليه؟ فضحكت وقالت: (ما شبع آل محمد ﷺ من خبز بُرٍّ مأدوم ثلاثة أيام حتىٰ لحق بالله)[1].

ولما توفي رسول الله ﷺ قالت رضي الله عنها: (توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبِد إلا شَطْر شعير في رَفٍّ لي، فأكلت منه حتىٰ طال عليّ، فكِلْته ففني)[2].

ووصف خادم النبي عليه الصلاة والسلام أنس بن مالك رضي الله عنه معيشته عليه الصلاة والسلام فقال: (مشيت إلىٰ النبي ﷺ بخبز شعير وإهاله سنخة ـ دهن مذاب متغير ـ ولقد رُهن له درع عند يهودي بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله، ولقد سمعته ذات يوم يقول: «ما أمسىٰ عند آل محمد صاع من تمر ولا صاع حب» وإن عنده يومئذ لتسع نسوة)[3].

الاختيـــار

وحملت شـدة العيش هـذه أُمهـات المؤمنين علىٰ أن يسـألـنَ رسول الله ﷺ أن يوسِّع عليهنّ في النفقة، فغضب عليه الصلاة والسلام منهنّ، واعتزلهنّ في مشربة له ـ غرفة عالية ـ وأقسم عليه الصلاة والسلام ألاَّ يدخل عليهنّ شهراً، وفي أثناء ذلك أنزل الله عليه آيتي التخيير، فمكث عليه الصلاة والسلام تسعة وعشرين يوماً، ثم دخل علىٰ السيدة عائشة فقالت: (أليس قـد كنت آليتَ شهـراً) فعـدَّدت الأيـام تسعـاً وعشـرين، فقـال رسول الله ﷺ: «الشهر تسع وعشرون»[4] وقوله عليه الصلاة والسلام: «الشهر تسع وعشرون» أي هذا الشهر.

قال ابن كثير في تفسير آيتي التخيير: (هذا أمر من الله تبارك وتعالىٰ لرسول الله ﷺ بأن يخيِّر نساءه: بين أن يفارقهنّ فيذهبن إلىٰ غيره ممن يحصل لهنّ عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر علىٰ ما عنده من ضيق

---

(١) رواه البخاري.
(٢) البخاري.
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح والترمذي.
(٤) أخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه.

الحال ولهنّ عند الله تعالىٰ في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهنّ وأرضاهنّ الله ورسوله والدار الآخرة)[1].

وروىٰ البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالىٰ أن يخيِّر أزواجه، قالت: (فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتىٰ تستأمري أبويك» ـ وقد علم أنَّ أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه ـ قالت: ثم قال: «إن الله تعالىٰ قال: ﴿ يا أيُّها النبي قُلْ لأزواجك﴾ إلىٰ تمام الآيتين»[2]، فقلت له: ففي أيّ هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة). وفي رواية زادت عائشة فقالت: ﴿ وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت)، فقال ﷺ: «إن الله لم يبعثني معنِّفاً ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً، لا تسألني امرأة منهنّ عمّا اخترتِ إلا أخبرتها»[3].

ثم خيَّر ﷺ نساءه كلَّهنّ فقلن مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهنّ.

وبعد اختيارهنّ رضي الله تعالىٰ عنهنّ الله ورسولَه والدارَ الآخرة كرَّمهنّ الله تبارك وتعالىٰ وكافأهنّ علىٰ اختيارهنّ أحسن تكريم وأعظم مكافأة، وسوف نتحدث فيما يلي عن ألوان هذا التكريم الإلٰهي لهؤلاء السيدات الفضليات.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

(٢) ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنَّ تردْن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنَّ وأسرحكنَّ سراحاً جميلاً ● وإن كنتنَّ تردْنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ الآيتان ٢٨ ـ ٢٩ من سورة الأحزاب.

(٣) الزيادة عند مسلم والإمام أحمد.

تكريم الله سبحانه لأزواج النبي ﷺ

التَّكْرِيمُ الأَوَّل: أُمَّهَاتُ المُؤْمِنِينَ

رفع الله مقام أزواج النبي ﷺ، وبوّأهنَّ أعلىٰ منزلة عند جميع المؤمنين، وهي منزلة الأمومة، فأعظِمْ بها من منزلة، فقال جلَّ وعلا: ﴿ النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أُمّهاتهم ﴾[1]، أي في الحُرْمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا يجوز الخلوة بهنّ، ولا النظر إليهنّ إلا من وراء حجاب، وقد مرَّ معنا قول الحق سبحانه: ﴿ وإذا سألتموهنَّ متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب، ذٰلكم أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنّ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذٰلكم كان عند الله عظيماً ﴾[2].

ونزلت هذه الآية تأييداً لرأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد أن أشار علىٰ رسول الله ﷺ ليحجبَ أُمهات المؤمنين، فقد روىٰ البخاري عن أنس بن مالك قال: (قال عمر بن الخطاب يا رسول الله يدخل عليك البرُّ والفاجر، فلو أمرتَ أُمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب).

ويجب علينا أن نعلمَ أن الآية وإن نزلت بسبب أزواج النبي ﷺ، إلا أن حكمها عامٌّ ينسحب علىٰ جميع النساء، إذ من المعروف المقرر عند العلماء: أنَّ خصوص السبب لا يعني خصوص الحكم، بل يبقىٰ الحكم عامّاً، وكيف لا يكون الحكم عامّاً، وغير أُمّهات المؤمنين من النساء يحتجن

---

(١) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٥٤ من سورة الأحزاب.

إلىٰ الاحتجاب عن الرجال الأجانب عنهنّ أكثر من أُمّهات المؤمنين، لأنه ليس لعامّة النساء من الحُرمة والتعظيم ما خصَّ الله تعالىٰ بها أُمّهات المؤمنين، فرغبة الرجال في غير أُمهات المؤمنين أكثر، ولهذا لا بدَّ أن يكون حكم آية الحجاب مقرراً علىٰ جميع النساء بالأولىٰ، ويؤكد عموم الحكم قول الله سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿ يا أيُّها النبي قُلْ لأزواجك وبناتك ونِساءِ المؤمنين يُدْنِينَ عليهن من جلابيبهنَّ، ذلك أدنىٰ أن يُعرفنَ فلا يُؤذينَ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[1].

قال ابن عباس: (أمر الله نساء المؤمنين إذا خَرَجْنَ من بيوتهنَّ في حاجة أن يغطّين وجوههنّ من فوق رؤوسهنّ بالجلابيب، ويُبدين عيناً واحدة)[2].

ولا شك أن تكريم زوجات النبي ﷺ بهذا المقام تكريم في الحقيقة للنبي ﷺ، وهذا من خصوصياته التي خصّه الله بها عليه الصلاة والسلام دون سائر الأنبياء والمُرسلين عليهم الصلاة والسلام، فلم نعلم أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ كرَّم زوجات الأنبياء والمُرسلين السابقين مثل هذا التكريم، بل أخبرنا الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم أنَّ بعض زوجات الأنبياء كنَّ كافرات، ويدخلن النار مع الداخلين فيها بسبب كفرهنّ، قال تعالىٰ: ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدَين من عبادنا صالِحَين فخانتاهما، فلم يُغْنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾[1].

وسيأتي معنا كيف كرَّم الله نبيّنا ﷺ فحرّم عليه أن يتزوج امرأة كافرة ولو كانت كتابية، تنزيهاً لمنصب نبوّته عليه الصلاة والسلام.

---

(١) الآية ٥٩ من سورة الأحزاب.

(٢) انظر تفسير ابن كثير.

(٣) الآية ١٠ من سورة التحريم.

التَّكْرِيمُ الثَّانِي

ولما اختار أزواج النبي ﷺ اللَّهَ ورسولَه والدارَ الآخرة كرَّمهنّ الله تكريماً آخر، فقَصَر الله سبحانه نبيّه ﷺ عليهنّ رضي الله عنهنّ، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهنّ، فقال جلّ وعلا مخاطباً النبي ﷺ: ﴿لا يحلّ لك النساء من بعد، ولا أن تَبَدَّل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنُهنّ إلا ما ملكت يمينك، وكان الله علىٰ كل شيء رقيباً﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله: (هذه الآية نزلت مجازاةً لأزواج النبي ﷺ علىٰ حُسن صنيعهنّ في اختيارهنّ الله ورسوله والدار الآخرة، لمَّا خيَّرهنّ رسول الله ﷺ كما تقدَّم، فلما اخترنَ رسول الله ﷺ كان جزاؤهنّ أن الله تعالىٰ قَصَره عليهنَّ، وحرَّم عليه أن يتزكوج بغيرهنَّ أو يستبدل بهنّ أزواجاً غيرهنّ)[2].

وجدير بنا أن نذكر في هذا المقام أن الله سبحانه أنزل علىٰ نبيّه ﷺ قبل التخيير قوله الكريم لأزواج النبي ﷺ بسبب ما وقع بينهنّ من الغَيْرة عليه ﷺ، فقال جلَّ وعلا: ﴿عسىٰ ربُّه إنْ طلقكنَّ أن يُبْدلَه أزواجاً خيراً منكنَّ، مسلماتٍ، مؤمناتٍ، قانتاتٍ، تائباتٍ، عابداتٍ، سائحاتٍ، ثيِّبات وأبكاراً﴾[3].

فقد كنَّ رضي الله عنهنّ قبل الاختيار معرَّضات للطلاق، مهدَّدات به، كما دلَّت عليه الآية الكريمة السابقة، أما بعد الاختيار فقد قرَّت أعينهنّ، رضي الله عنهنّ، واطمأنّت قلوبهنّ إلى أنَّهنّ أزواجه عليه الصلاة والسلام في الدنيا والآخرة.

وذهب بعض العلماء إلى أن الله سبحانه أباح للنبي ﷺ الزواج ممَّن يشاء من النساء، بشرط أن يكنَّ من اللواتي ذكرهنّ الله سبحانه بقوله الكريم

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

(٢) انظر تفسير ابن كثير.

(٣) الآية ٥ من سورة التحريم.

في سورة الأحزاب: ﴿ يا أيُّها النبي إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنّ، وما ملكتْ يمينُك ممّا أفاء الله عليك، وبنات عمك، وبنات عمّاتك، وبنات خالك، وبنات خالاتك، اللاتي هاجرن معك، وامرأة مؤمنة إنْ وَهَبَتْ نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصةً لك من دون المؤمنين، قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم، لكي لا يكون عليك حَرَجٌ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[1].

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: (ما مات رسول الله ﷺ حتىٰ أحلَّ الله له النساء)[2].

ولا يخفىٰ علىٰ المتأمل للآية الكريمة ما فيها من أحكام خاصَّة بالنبي ﷺ تكريماً له وتشريفاً لمقام النبوّة. فليس له عليه الصلاة والسلام أن يتزوَّج بمهر إلا من النساء المهاجرات، لأن الله تبارك وتعالىٰ شرط ذلك بقوله: ﴿ اللاتي هاجرنَ معك ﴾ والمراد من المعيَّة، الاشتراك في الهجرة لا الصحبة فيها.

الوَاهِبَاتُ أَنفُسَهُنَّ

ويحلّ له عليه الصلاة والسلام أيضاً أن يتزوج من النساء الواهبات أنفسهنّ له بدون مهر، بشرط أن يكنَّ مؤمنات، فالمرأة الكافرة لا تحلّ له عليه الصلاة والسلام ولو كانت كتابيةً، يهودية أو نصرانية؛ تشريفاً وتكريماً لمقام النبوّة، وقد نقل القرطبي عن ابن العربي رحمهما الله كلاماً جميلاً ونفيساً في تفسير هذه الآية فقال: (وبهذا يتميز ﷺ علينا، فإنَّ ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظُّه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر، فجوَّز لنا نكاح الكتابيات، وقُصر هو ﷺ لجلالته علىٰ المؤمنات، وإذا كان لا تحلّ له مَنْ لم تهاجر لنقصان فضل الهجرة، فأحرىٰ أن لا تحلّ الكافرة الكتابية لنقصان الكفر)[3].

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الأحزاب.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن وقال حديث حسن صحيح.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٤/٢١.

وكما أحلّ الله سبحانه وتعالىٰ له عليه الصلاة والسلام بأن يتزوج بدون مهر أحلّ الله له أيضاً أن يتزوج بدون وليّ للمرأة ولا شهود، فولايته عليه الصلاة والسلام علىٰ المؤمنين والمؤمنات أكمل وأعلىٰ من أي ولاية، كما مرّ معنا في قوله تعالىٰ: ﴿ النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ وكذلك له عليه الصلاة والسلام أن يتزوج من النساء المذكورات في الآية بدون حصر وتقييد بعدد معين، كما هو الحال بالنسبة للمؤمنين، فلم تقيِّده الآية بعدد معين، بل جاءت مطلقة، وقال الله في آخرها: ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم ﴾ أي من حصرهم في أربع نسوة واشتراط المهر والشهود والوليّ، أما النبي ﷺ فلم يوجب سبحانه عليه شيئاً من ذلك، دفعاً لأيّ حرج عنه ﷺ، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ لكي لا يكون عليك حَرَجٌ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾.

ومع كل هذا فإنَّه عليه الصلاة والسلام لم يتزوج غير أُمهات المؤمنين اللواتي اخترنَ الله ورسوله والدار الآخرة، ولا حتىٰ من الواهبات أنفسهنَّ له، فقد ثبت في السنّة الصحيحة أن عدداً من النساء وهبنَ أنفسهنّ لرسول الله ﷺ لينلنَ شرف الزواج منه عليه الصلاة والسلام، إلَّا أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يتزوج واحدة منهنَّ، وكان أحياناً يزوِّجهنّ من غيره عليه الصلاة والسلام، نظراً لكمال ولايته عليهنّ.

ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: (يا رسول الله زوِّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة) فقال رسول الله ﷺ: «هل عندك من شيء تُصْدقها إياه؟» فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً» فقال: لا أجد شيئاً فقال: «التمس ولو خاتماً من حديد» فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هل معك من القرآن شيء؟» قال: نعم سورة كذا وسورة كذا، فقال له النبي ﷺ: «زوّجتكها بما معك من القرآن».

وفي البخاري أيضاً عن ثابت قال: كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له فقال أنس: (جاءت امرأة إلىٰ النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله هل لك فيَّ حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقلَّ حياءها! فقال أنس: «هي خير منك، رغبت في النبي ﷺ فعرضتْ عليه نفسها).

فاللواتي وهبنَ أنفسهنّ للنبي ﷺ كثير، حتىٰ أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تغارُ منهنَّ وتقول: (كنت أغار من اللواتي وهبنَ أنفسهنّ للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالىٰ: ﴿تُرجي مَنْ تشاء منهنّ، وتؤوي إليك مَنْ تشاء، ومن ابتغيتَ ممَّن عزلتَ فلا جُناح عليك﴾[1]. قلت: ما أرىٰ ربك إلا يسارع في هواك)[2].

قال ابن عباس رضي الله عنه: (لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له)[3].

وفي هذا ردٌّ علىٰ أعداء الإسلام الذين اتَّهموا رسول الله ﷺ بأنه رجل شهواني، محتجّين بتعدّد زوجاته عليه الصلاة والسلام، ولو كان كما زعموا صحيحاً لتزوَّج ﷺ غير أُمهات المؤمنين ما شاء من النساء بعد أن أحلَّ الله له ذلك، ووضع عنه قيود الزواج من مهر ووليّ وشهود.

وإن قضية تعدّد زوجاته عليه الصلاة والسلام من خصوصيات منصب النبوّة، فما كان زواجه عليه الصلاة والسلام إلا لضرورات تشريعية، أو لمصلحة تقتضيها الدعوة الإسلامية، فحياته ﷺ الخاصّة والعامّة ليست مِلْكاً له إنما هي ملك لدعوته ورسالته.

ولا شك أن الله سبحانه وتعالىٰ العليم الخبير يعلم أن النبي ﷺ لن يتزوج سَوىٰ أُمّهات المؤمنين اللواتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فما أنزل هذه الآية إلا بياناً لفضله سبحانه علىٰ النبي ﷺ بما شرَّفه وخصَّه من

---

(١) الآية ٥١ من سورة الأحزاب.

(٢) البخاري في الصحيح.

(٣) انظر تفسير ابن كثير.

أحكام خاصّة به، وردّاً علىٰ أعدائه عليه الصلاة والسلام الذين حاولوا أن ينالوا منه افتراءً وكذباً.

زَيْدٌ وَزَيْنَبُ

وقد ذكرت سورة الأحزاب قصة زواجه عليه الصلاة والسلام من السيدة زينب بنت جحش الأسدية، لتؤكد هذه الحقيقة، وتردّ علىٰ المفترين من أعداء الإسلام الذين حاولوا أن يطعنوا به عليه الصلاة والسلام، مستغلين تعدّد زوجاته ﷺ، وكشفت لنا الآيات الكريمة في سورة الأحزاب أن زواجه من السيدة زينب كان لضرورة تشريعية، فقد أمره الله بهذا الزواج مع أنه ﷺ ما كان راغباً فيه، قال تعالىٰ: ﴿ وإذ تقول للذي أنعمَ الله عليه وأنعمتَ عليه: أمسِك عليك زوجك واتقِ الله، وتُخفي في نفسك ما اللَّهُ مُبديه، وتخشىٰ الناس والله أحقّ أن تخشاه، فلما قَضىٰ زيدٌ منها وَطَراً زوّجناكها لكي لا يكون علىٰ المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضَوا منهنّ وَطَراً، وكان أمر الله مفعولاً ● ما كان علىٰ النبي من حَرَجٌ فيما فرض الله له، سنّة الله في الذين خَلَوا من قَبْلُ، وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً ﴾[1].

وزيد الذي شرَّفه الله سبحانه بذكر اسمه في التنزيل الحكيم يتلوه المؤمنون في عباداتهم وصلواتهم، هو زيد بن حارثة رضي الله عنه، خصّه الله بهذه الفضيلة العالية دون سائر الصحابة رضي الله عنهم، وشهد له بنعمة الإيمان، وقد قال العلماء: إن الله سبحانه ذكره في القرآن الكريم تعويضاً له عن الشرف الذي فاته، فبعد أن كان يسمىٰ زيد بن محمد عاد عليه الصلاة والسلام فسمّاه باسمه الأصلي زيد بن حارثة.

كان رضي الله عنه في أول أمره عبداً مملوكاً من سبي الجاهلية عند النبي ﷺ، وقد تعرَّف عليه أبوه وعمُّه وعرضا علىٰ النبي ﷺ ما شاء من المال ليردَّ زيداً إلىٰ أهله؛ إلَّا أنَّه عليه الصلاة والسلام رفض أن يأخذ شيئاً من المال، وخيَّر زيداً بين الذهاب مع أبيه وعمّه ليعيش مع أهله، وبين البقاء

---

(١) الآيتان ٣٧ ـ ٣٨ من سورة الأحزاب.

عنده، فاختار رضي الله عنه البقاء عند رسول الله ﷺ، أي اختار العبودية عند رسول الله ﷺ علىٰ الحرية والعيش بين أهله وذويه، ممَّا يدلّ علىٰ عظيم محبته للنبي ﷺ وشدّة تعلقه به، وكل ذلك كان قبل نزول الوحي علىٰ النبي ﷺ، فكافأه النبي عليه الصلاة والسلام علىٰ هذا، وأعلن تبنيه لزيد حتىٰ صار يُدعىٰ منذ ذلك الوقت زيد بن محمد، ولما نزل الوحي علىٰ النبي ﷺ وأكرمه الله بالنبوّة والرسالة كان زيد من السابقين إلىٰ الإسلام: السيدة خديجة، وأبو بكر، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة رضي الله عنهم وأرضاهم.

وبقي رضي الله عنه يُدعىٰ زيد بن محمد حتىٰ أنزل الله سبحانه في سورة الأحزاب الآيات التي تمنع من ذلك، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ما جعل الله لرجل من قَلْبَين في جوفه، وما جعل أزواجَكم اللائي تظاهرون منهنَّ أمهاتكم، وما جعل أدعياءَكم أبناءَكم، ذٰلكم قولكم بأفواهكم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ● ادْعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانُكم في الدين ومواليكم، وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم به، ولكن ما تعمدتم به، وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1]، فعاد يسمِّيه النبي ﷺ باسمه الأصلي زيد بن حارثة.

ثم خطب له ﷺ السيدة زينب بنت جحش الأسدية بنت عمته عليه الصلاة والسلام أميمة بنت عبد المطلب، فاستنكفت عنه وقالت: أنا خير منه حَسَباً، حتىٰ أنزل الله تعالىٰ قوله الكريم: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضىٰ الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم، ومن يَعْصِ الله ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾[2]، فرضيت وعاشت معه قريباً من سنة أو أكثر، إلا أنها كانت تُدلُّ عليه بحسبها، وكان زيد يشكوها للنبي ﷺ، فيقول له عليه الصلاة والسلام: «أمسك عليك زوجك واتق الله» ويخفي ﷺ في نفسه ما أعلمه الله تعالىٰ من أنها ستكون من أزواجه.

---

(١) الآيتان ٤ ـ ٥ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

ولمَّا طلَّقها زيد وانقضت عدّتها تزوّجها ﷺ بدون وليّ ولا شهود، لأنَّ الله سبحانه زوَّجه إياها كما هو ظاهر في قوله الكريم: ﴿ فلما قَضَىٰ زيد منها وَطَراً زوجناكَها ﴾، وكانت رضي الله عنها تفخر علىٰ أزواج النبي ﷺ وتقول: ﴿ زوجكنَّ أهاليكنَّ، وزوّجني الله من فوق سبع سموات ﴾[1].

وبيَّن سبحانه الحكمة التشريعية من ذلك بقوله: ﴿ لكي لا يكونَ علىٰ المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قَضَوا منهنّ وَطَراً ﴾ أي إنما فعلنا ذلك حتىٰ لا يبقىٰ حرج علىٰ المؤمنين في الزواج من مطلَّقات الأدعياء، الذين يتبنونهم، وكانوا في الجاهلية يمنعون مثل هذا الزواج.

قتل زيد بن حارثة رضي الله عنه في العام السابع من الهجرة شهيداً في غزوة مؤتة، وكان رسول الله ﷺ قد أرسله أميراً علىٰ جيش إلى بلاد الشام. قالت عائشة رضي الله عنها: (ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمّره عليها، ولو عاش بعده لاستخلفه)[2].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأُصيب، ثم أخذ جعفر فأُصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله فتح الله عليهم»[3].

التَّكْرِيمُ الثَّالِث

وكرَّم الله سبحانه أزواج النبي ﷺ أيضاً بعد أن اخترنَ الله ورسولَه والدار الآخرة بتوجيه الخطاب لهنَّ مباشرة في القرآن الكريم، فبعد آية التخيير خاطبهنَّ الله تبارك وتعالىٰ مرتين بقوله الكريم: ﴿ يا نساء النبي ﴾ بينما كان الخطاب في آية التخيير للنبي ﷺ، فقبل الاختيار ﴿ يا أيُّها النبي قُلْ لأزواجك ﴾ وبعد الاختيار ﴿ يا نساء النبي ﴾.

---

(١) البخاري عن أنس.

(٢) أخرجه أحمد في المسند عن عائشة.

(٣) البخاري في الصحيح.

أرأيت عظيم فضل الله عليهنّ كيف أكرمهنَّ وشرّفهنَّ لأنهنَّ اخترنَ البقاء مع رسول الله ﷺ، فما أكرم رسول الله ﷺ على الله تعالىٰ!!، وما أعظم مكانته عند الله سبحانه!.

الخطاب الأول:

﴿ يا نساء النبي مَنْ يأتِ منكن بفاحشة مُبَيِّنة يُضاعف له العذاب ضعفين، وكان ذلك علىٰ الله يسيراً ● ومَنْ يَقْنُت منكنَّ للَّهِ ورسولِه، وتعمل صالحاً نُؤْتِها أجرَها مرَّتين، وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾[1].

لأزواج النبي ﷺ منصب كبير وخطير، إذ هنَّ أُمهات المؤمنين وزوجات خير المُرسلين، ويترتب علىٰ ذلك أنهنّ رضي الله عنهنّ يتحملنَ مسؤوليات جِساماً وتَبِعات عظاماً، ولهذا تضمَّن النداء الأول من الله سبحانه لهنَّ هذا التهديد الخطير بمضاعفة العذاب ضِعْفَين لمن تأتِ منهنّ بفاحشة مبيّنة.

والمراد من الفاحشة المبيّنة: النشوز، وسوء الخلق، وبعضهم قال: الفاحشة المبيِّنة هي الزنى، وحاشاهن رضي الله عنهنّ عن ذلك، إنما جاء التهديد في هذا الخطاب بياناً لخطورة ورِفعة المكانة التي أكرمهنَّ الله بها عندما أصبحن زوجات رسول الله ﷺ وأُمهات المؤمنين.

ومهما قيل عن الفاحشة المبيّنة، فهي شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، مثل قوله تبارك وتعالىٰ للنبي ﷺ: ﴿ لئن أشركتَ ليحبطنَّ عملك ﴾[2]. وحاشاه ﷺ عن ذلك.

ومن المقرر عند العلماء أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ صان زوجات الأنبياء عن الفاحشة التي هي الزنىٰ، وقالوا في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدَين من عبادنا صالِحَين فخانتاهما، فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[3]،

---

(١) الآيتان ٣١ ـ ٣٢ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية ٦٥ من سورة الزمر.
(٣) الآية ١٠ من سورة التحريم.

ليس المراد بقوله: ﴿ فخانتاهما ﴾ في فاحشة بل في الدين، فإنَّ نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحُرمة الأنبياء، قال ابنُ عباس: (ما بَغَت امرأة نبي قطّ إنما كانت خيانتهما في الدين)، وفي رواية أخرىٰ عنه: (خيانتهما أنهما كانتا علىٰ غير دينهما)[1].

ومضاعفة العذاب إذا أتت بفاحشة مبيِّنة بسبب ما في الفاحشة المبيّنة من المفاسد، وبسبب إيذاء النبي ﷺ والإزراء بمنصبه الرفيع، ففي التهديد بمضاعفة العذاب دليل علىٰ شرفهنّ رضي الله عنهنّ ورِفعة مكانتهنّ، ولهذا كان عقاب الحرَّة إذا زنت ضعف عقاب الأَمَة إظهاراً لشرف الحرّة وكرامتها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ومن يَقْنُتْ منكنَّ لله ورسوله وتعملْ صالحاً نؤتِها أجرها مرتين، وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾ جاء في مقابلة قوله تعالىٰ: ﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ فالغُنْم بالغُرْم، ومضاعفة الأجر والثواب منوط بطاعة الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام والعمل الصالح، وليس منوطاً بمنزلتهنّ العالية، فالتكليف في الإسلام لا يسقط عن أحد أبداً مهما كانت منزلته رفيعة، وقد سبق وذكرت في أول الكتاب أن التكليف تشريف، ولهذا كان ﷺ مكلَّفاً بالعبادة والطاعة أكثر من سائر المؤمنين، حتىٰ قالوا: إن قيام الليل فَرْضٌ في حقِّه عليه الصلاة والسلام، بينما هو سُنَّة في حق غيره، لأنه ﷺ أشرف الخلق وأفضلهم.

إنَّ أُمّهات المؤمنين إذا أطعنَ اللَّهَ ورسولَه وعملنَ العمل الصالح الذي كلفهنَّ الله به أكرمهنّ الله تعالىٰ بمضاعفة الثواب، والرزق الكريم في الجنة، فإنهنَّ رضي الله عنهنّ في منازل رسول الله ﷺ في أعلىٰ علِّيين، وفوق منازل الخلق أجمعين، في الوسيلة التي هي أقرب المنازل إلىٰ العرش العظيم. رضي الله عنهنّ وأرضاهنّ.

الخطاب الثاني:

﴿ يا نساء النبي لستنّ كأحد من النساء، إن اتَّقَيْتُنَّ فلا تَخْضَعْنَ بالقول

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

فيطمعَ الذي في قلبه مَرَضٌ، وقُلْنَ قولاً معروفاً ● وقَرْنَ في بيوتكنَّ، ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولىٰ، وأقمْنَ الصلاة وآتينَ الزكاة، وأطعْن الله ورسوله، إنَّما يريد الله ليذهبَ عنكم الرجْس أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً ● وإذْكُرْنَ ما يُتلىٰ في بيوتكن من آياتِ الله والحكمة، إنَّ الله كان لطيفاً خبيراً ﴾[1].

بدأ الخطاب الثاني ببيان مكانة أمهات المؤمنين وفضلهنَّ علىٰ سائر النساء لكونهنّ زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعليهنَّ رضي الله عنهنّ أن يوفّينَ هذه المكانة حقَّها، ويَقمْنَ بما تفرضه عليهنَّ هذه المكانة الرفيعة التي ليست لأحد غيرهنَّ من سائر نساء العالمين، وفضيلة هذه المكانة لا تتم إلا بالتقوىٰ، ولهذا شرط الله سبحانه عليهنّ شرط التقوىٰ، فهنَّ في أعلىٰ المراتب إنِ اتَّقيْنَ الله سبحانه، بهذا يظهر فضلهنَّ لا بمجرد اتصالهنَّ برسول الله ﷺ، فالمسألة إذاً ليست مجرد قرابة من النبي ﷺ، بل لا بدَّ من القيام بحق هذه القرابة في ذات أنفسهنّ وفي سلوكهنّ.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (شرط عليهنّ التقوىٰ بياناً أن فضيلتهنّ إنما تكون بالتقوىٰ لا بنفس اتصالهنّ برسول الله ﷺ)[2].

وقال سيد قطب رحمه الله: (وذلك هو الحقُّ الصارم الذي يقوم عليه هذا الدين، والذي يقرره رسول الله ﷺ وهو ينادي أهله ألاَّ يغرهم مكانهم من قرابته، فإنه لا يملك لهم من الله شيئاً)[3].

والحديث النبوي الشريف الذي أشار إليه سيد قطب رحمه الله رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (ولما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[4] قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة بنت

---

(١) الآيات ٣٢ ـ ٣٤ من سورة الأحزاب.

(٢) انظر صفوة التفاسير.

(٣) انظر في خلال القرآن.

(٤) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سَلُوني من مالي ما شئتم»).

صـــوت المرأة:

ومن التقوىٰ أن ﴿ لا يخضعن بالقول فيطمَع الذي في قلبه مرض ﴾ أي أن لا يكون في نبرات كلامهنّ ذلك الخضوع اللين الذي يثير شهوات الرجال، ويحرّك غرائزهم، فيطمع فيهنّ مرضىٰ القلوب.

ويدلّ هذا التحذير علىٰ ما في صوت المرأة حين تليِّن كلامها وترقّق صوتها وتميّع لهجتها، من إثارة للشهوات، وتهييج للغرائز والنزوات.

وهذا ما جعل كثيراً من الفقهاء يَرَوْن أن صوت المرأة إذا كان فيه خضوع في القول وتكسّر وتغنُّج، عورة يحرم علىٰ المرأة أن تُسمعه الرجال الأجانب عنها.

نقل الفقيه الحنفي المشهور بابن عابدين عن أبي العباس القرطبي قوله: (ولا يظنُّ مَن لا فِطْنة عنده أنّا إذا قلنا: صوت المرأة عورة، أنّا نريد بذلك كلامها، لأن ذلك ليس بصحيح، فإنّا نُجيز الكلام مع النساء للأجانب ومحاورتهنّ عند الحاجة إلىٰ ذلك، ولا نجيز لهنَّ رفع أصواتهنّ ولا تمطيطها ولا تليينها ولا تقطيعها، لما في ذلك من استمالة الرجال إليهنّ وتحريك الشهوات منهم، ومن هذا لم يجز أن تـؤذن المرأة)[1].

وكذلك لا تلبِّي جهراً، ولا تقرأ في الصلاة جهراً، ولهذا منع عليه الصلاة والسلام النساء من التسبيح بـالصوت لإعـلام الإمام بسهـوه إلىٰ التصفيق[2].

وفي صحيـح مسلم عن أبي هـريـرة رضي الله عنـه قـال: قـال رسول الله ﷺ: «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء» وزاد في رواية: «في الصلاة» وبيَّن الإمام النووي رحمه الله في شـرحه لصحيـح مسلم كيفية

---

(١) انظر ردّ المحتار علىٰ الدرّ المختار المشهور بحاشية ابن عابدين ١/٢٧٢.

(٢) المرجع نفسه.

التصفيق فقال: (تَضْرب المرأة بطن كفّها الأيمن علىٰ ظهر كفها الأيسر، ولا تضرب بطن كف علىٰ كف علىٰ وجه اللعب واللهو، فإن فعلت هكذا على وجه اللعب بطلت صلاتها لمنافاته الصلاة).

وقوله سبحانه: ﴿لَسْتُنَّ كأحدٍ من النساء إنِ اتقيتنَّ﴾ يدلّ علىٰ أن المرأة المسلمة إن اتقت الله سبحانه تتميز عن سائر النساء بتقوَاها وخشيتها وطاعتها لربّها سبحانه، فالخطاب وإن كان لنساء النبي ﷺ فالنساء المسلمات تبع لهنّ في ذلك، وكل ما في الخطاب من آداب وأخلاق يهدف إلىٰ إبعاد المرأة المسلمة عن منطقة الخطر، وتجنيبها الطرق التي تؤدي بها إلىٰ الوقوع في المعاصي والآثام.

وإنما جاء الخطاب لنساء النبي ﷺ لأنهنّ في مركز القدوة الطيبة والأسوة الحسنة لما لهنّ من مكانة في بيت النبوّة، فهنَّ أمهات المؤمنين، وعندهنّ الكثير من الأحكام الشرعية والسنّة النبوية التي لا يعلمها غيرهنّ، فهنَّ معرّضات للحديث مع الرجال الذين يأتون إلىٰ بيوتهنّ يسألونهنّ عن الوحي والسنّة، ولهذا أمرهنّ الله سبحانه أن يكون كلامهنّ مع الناس جادّاً حازماً لا لغو فيه ولا هزل ولا مزاح، حتىٰ لا يطمع فيهنّ مَنْ في قلبه فسق وفجور، ولهذا قال سبحانه لهنّ: ﴿وقلنَ قَوْلاً معروفاً﴾ وكما لا يكون بالقول المعروف هزل ولا لغو ولا مزاح، كذلك لا يكون فيه منكر ولا إيذاء.

إن من واجب المرأة المسلمة في هذا العصر أن تتفهم أبعاد خطاب الله سبحانه لنساء النبي ﷺ، وأن تعلم أن الله تعالىٰ الذي خلق الرجال والنساء يعلم ما في صوت المرأة حين تخضع بالقول من إثارة رغبة الرجال فيها، ويعلم سبحانه أيضاً أن القلوب المريضة التي تثور وتطمع موجودة في كل عهد وفي كل بيئة وتجاه كل امرأة ولو كانت أمّ المؤمنين وزوجة سيد المرسلين، وأنه لا طهارة من الذنب ولا تخلُّص من الرجس حتىٰ تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس.

ولقد جاء الخطاب، كما قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ في خير العصور وفي أطهر مجتمع عرفه تاريخ البشرية، فكيف بمجتمعنا الحاضر الذي نعيش

فيه، المجتمع الذي تهيج فيه الفتن، وتثور فيه الشهوات، وترف فيه الأطماع، كيف بنا في هذا الجو الذي كل شيء في يثير الفتنة ويهيج الشهوة وينبّه الغريزة، ويوقظ السُّعار الجنسي المحموم؟!! النساء فيه يتخنَّثنَ في نبراتهنّ ويتميَّعن في أصواتهن، ويجمعن كل فتنة الأنثىٰ وكل هتاف الجنس وكل سِعار الشهوة، ثم يُطلقنَه في نبرات ونغمات.

إنَّ علىٰ المرأة المسلمة أن تضع دائماً في قلبها ووجدانها خطاب الله سبحانه لنساء النبي ﷺ عندما تتكلم مع الأغراب، سواء كانت في بيتها أو بواسطة الهاتف أو في السوق أو في مكان العمل، لتكون حقاً مقتدية بأُمّهات المؤمنين، وتكون فعلاً ليست كأحد من النساء في مجتمعها وعصرها.

المرأة والعمل:

﴿ وقَرْنَ في بيوتكنَّ ولا تبرجنَ تبرُّج الجاهلية الأولى ﴾ أمرهنّ الله عزّ وجلّ أن يُقمن في بيوتهنّ فلا يخرجن منها إلَّا للضرورة، فالبيت مملكة المرأة، ولهذا أضاف الله سبحانه البيوت إليهنَّ للإشارة إلىٰ هذه الحقيقة فقال: ﴿ وقَرْنَ في بيوتكنّ ﴾ والمرأة لا تشعر بحقيقتها غير مشوَّهة ولا منحرفة ولا ملوَّثة، إلا في بيتها في مملكتها. وحتىٰ تتفرغ المرأة لبيتها ورعاية زوجها وأولادها أوجب الله سبحانه النفقة علىٰ الزوج ولم يكلّف المرأة بها، حتىٰ يُتاح لها من الجهد والوقت وهدوء البال ما تشرف به علىٰ تربية أولاده، وتعطي بيت الزوجية عطره وبشاشته ونظافته. قال تعالىٰ: ﴿ وعلىٰ المولودِ له رزقُهنَّ وكِسْوتُهنَّ بالمعروف ﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿ لِيُنْفِق ذو سعة من سعته، ومن قُدِر عليه رزقُه فلينفق مما آتاه الله، لا يكلفُ الله نفساً إلا ما آتاها، سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾[2].

ورحم الله سيد قطب عندما قال: (الأُم المكدودة بالعمل للكسب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيدة بمواعيده، المستغرقة الطاقة فيه، لا

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٧ من سورة الطلاق.

يمكن أن تهب للبيت جوّه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها، وبيوت الموظّفات والعاملات ما تزيد علىٰ جو الفنادق والخانات، وما يشيع فيها من الأرج الذي يشيع في البيت، فحقيقة البيت لا توجد إلا أن توجد فيه امرأة، وأرج البيت لا يفوح إلا أن تطلقه زوجة، وحنان البيت لا يشيع إلا أن تتولاّه أم، والمرأة أو الزوجة أو الأم التي تقضي وقتها وجهدها وطاقتها الروحية في العمل، لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال.

وإنَّ خروج المرأة لتعمل كارثة علىٰ البيت قد تبيحها الضرورة، أما أن يتطوَّع بها الناس وهم قادرون علىٰ اجتنابها، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول في عصور الانتكاس والشرور والضلال)[1].

إن قوله تعالىٰ: ﴿ وقَرْنَ في بيوتكنّ ﴾ يدلّ علىٰ أن البيت هو الأصل في حياة المرأة، فهو مقرّها الذي أمرت أن تَقَرَّ فيه، وخروج المرأة من البيت استثناء طارىء للحاجة والضرورة. قالت عائشة رضي الله عنها: (خرجت سَوْدة بنت زَمْعة ليلاً، فرآها عمر فعرفها، فقال: إنكِ يا سَوْدة ما تخفَيْن علينا، فرجعت إلىٰ النبي ﷺ فذكرت ذلك له، وهو في حجرتي يتعشّىٰ وإنَّ في يده لَعَرْقاً ـ قطعة عظم عليها شيء من اللحم ـ فأنزل عليه، فرُفع عنه وهو يقول: ﴿ قد أذن لكنَّ أن تخرجنَ لحوائجكنّ ﴾[2].

تبرّج النساء:

وهذا يدل علىٰ أنَّ الله سبحانه أباح للنساء أن يخرجنَ من بيوتهنّ لقضاء حوائجهنّ، إلا أنَّه سبحانه شرط عليهنّ أن يخرجن متسترات متعفّفات غير متبرجات تبرّج أهل الجاهلية الأولىٰ، فقال سبحانه: ﴿ ولا تَبَرَجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولىٰ ﴾.

والتبرُّج: التكشّف والظهور للعيون، ومنه: بروج مشيدة، أي ظاهرة

---

(١) انظر في ظلال القرآن.

(٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

مرتفعة، وبروج السماء، لظهورها وارتفاعها، ومنه قولهم: سفينة بارجة أي ظاهرة لا غطاء عليها.

فلا يجوز للمرأة أن تُظهر زينتها حتىٰ لا يراها الرجال الأجانب عنها، وقد أمرها الله سبحانه بإخفائها إلا عن زوجها أو الرجال الأقارب منها الذين يحرم عليهم الزواج منها، قال تعالىٰ: ﴿ ولا يُبْدين زينتَهنَّ إلا لبُعولتهنَّ، أو آبائهنَّ، أو آباء بعولتهنَّ، أو أبنائهنَّ، أو أبناء بعولتهنَّ، أو إخوانهنَّ، أو بني إخوانهنَّ، أو بني أخواتهنَّ، أو نسائهنَّ، أو ما ملكت أيمانهنَّ، أو التابعين غير أُولي الإربة من الرجال، أو الطفل الذين لم يظهروا علىٰ عوراتِ النساء، ولا يضربنَ بأرجلهنَّ ليُعلم ما يُخفين من زينتهنَّ، وتوبوا إلىٰ الله جميعاً أيُّها المؤمنون لعلّكم تفلحون ﴾[1].

فإن أظهرت المرأة شيئاً من زينتها أمام غير هؤلاء الذين ذُكروا في الآية السابقة كانت متبرجة ومخالفة لقوله تعالىٰ: ﴿ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّج الجاهلية الأولىٰ ﴾ والجاهلية الأولىٰ: هي الجاهلية التي كان عليها الناس قبل الإسلام، ووَصْف هذه الجاهلية بصفة الأولىٰ فيه إشارة إلىٰ جاهلية أخرىٰ ستحدُث بعد الإسلام، قال الشوكاني في تفسيره: ﴿ يمكن أن يراد بالجاهلية الأخرىٰ ما يقع في الإسلام من التشبّه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنىٰ: ولا تبرجنَ أيّها المسلمات بعد إسلامكنّ تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتنَّ عليها، وكان عليها من قبلكنّ، أي لا تُحدثن بأقوالكنّ وأفعالكنّ جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل)[2].

وقد ذكر المفسرون صوراً لتبرّج النساء في الجاهلية الأولىٰ تبدو محتشمة وساذجة حين تُقاس بتبرج النساء في عصرنا هذا في جاهليتنا الحاضرة:

قال مجاهد: (كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال فذلك تبرّج الجاهلية).

وقال قتادة: (وكان لهنَّ مشية تكسُّر وتغنُّج، فنهى الله تعالىٰ عن ذلك).

---

(١) الآية ٣١ من سورة النور.

(٢) انظر فتح القدير.

وقال مقاتل بن حيان: (والتبرّج أنها تُلقي الخمار علىٰ رأسها ولا تشده ليُواري قلائدها وعنقها، ويبدو ذلك كلـه منها، وذلك التبرّج).

وقال ابن كثير: (كانت المرأة منهنّ تمرُّ بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة أُذنها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهنّ وأحوالهنّ).

هذه صور من صور التبرّج في الجاهلية الأولىٰ التي حرَّمها الله ونهىٰ عنها، فأين منها صور التبرّج في عصرنا الحاضر، صور النساء الكاسيات العاريات، المائلات المميلات، الكاشفـات عن كل مـواضع الفتنـة في أجسادهنّ؟! ولقد تحدَّث النبي ﷺ عن صور التبرج هذه التي ستحدُث بعده ووصفها ﷺ كأنه رآها رأْيَ عين، مما جعل هذا الحديث من أعلام نبوّته عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿ صِنْفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سِياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهنّ كأسنمة البخت المائلة ـ الإبل ـ، لا يـدخلنَ الجنة ولا يجـدنَ ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1].

ومهما تكلمنا، نحن أبناء هذا العصر، في وصف تبرّج نساء عصرنا فلن نبلغ مبلغ وصف رسول الله ﷺ الذي آتاه الله جوامع الكَلِم، وأعلمه الله تبارك، وتعالىٰ عمَّا يحدُث بعده من أحداث وفتن حتىٰ قيام الساعة.

إن أوجب واجبات المرأة المسلمة المعاصرة عندما تخرج من بيتها لحوائجها أن تتميز عن سائر النساء بمظهرها وعفَّتها، بملابسها السـابغة الساترة لها عن أعين الفسَّاق والفجَّار وما أكثرهم في عصرنا الحاضر!!

وعليها أن تتذكـر دائماً قـوله تبـارك وتعالىٰ: ﴿ يـا أيُّها النبي قـل لأزواجِك، وبناتِك، ونِساء المبؤمنين يُدنين عليهنّ من جلابيبهنّ، ذلك أدنىٰ أن يُعرفن فلا يُؤذينَ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾.

والجلبابْ: هو الرداء الذي تلبسه المرأة فوق ثيابها أو هو الملحفة.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

ومرَّ معنا قول ابن عباس: (أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهنّ في حاجة أن يُغطِّين وجوههنّ من فوق رؤوسهنّ بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة). وقال محمد بن سيرين رحمه الله: (سألت عَبيدة السَّلْماني رحمه الله عن قول الله عزَّ وجلْ: ﴿ يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ﴾ فغطّىٰ وجهه ورأسه، وأبرز عينه اليسرىٰ)[1].

صلاة المرأة في المسجد:

الصلاة في المسجد من الحوائج الشرعية، يجوز للمرأة الخروج من بيتها لأجلها بشرط أن تخرج غير متطيِّبة ولا متزينة، قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله، وليخرجنَ وهنّ تَفِلات»[2] أي غير متطيِّبات، لأن للرائحة الطيبة من المرأة تأثيراً كبيراً علىٰ الرجال، رُوي أن امرأة خرجت علىٰ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه متطيِّبة، فوجد ريحها، فعلاها بالدِّرَّة ثم قال: (تخرجنَ متطيِّبات فيجد الرجال ريحكنّ! وإنما قلوب الرجال عند أنوفهم، اخرجنَ تفلات)[3].

وروت زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: (قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكنّ المسجد فلا تَمَسَّ طيباً»)[4].

كذلك رُوي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أيّما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة»[5].

والأفضل للمرأة الصلاة في بيتها لقول رسول الله ﷺ: «إن المرأة عَوْرة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقربُ ما تكون برَوْحة ربها ـ رحمه ربها ـ وهي في قعر بيتها»[6].

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في جامعه.
(٤) أخرجه مسلم في الصحيح.
(٥) أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي.
(٦) أخرجه الترمذي والبزار.

ولما شاهدت عائشة رضي الله عنها ما استحدث النساء بعد رسول الله ﷺ من الزينة والطيب وحُسن الثياب، قالت رضي الله عنها: (لو أن رسول الله ﷺ رأىٰ ما أحدث النساء لمنعهنَّ المسجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل)[1].

تُرىٰ لو أدركت رضي الله عنها عصرنا الحاضر، ورأت ما قدَّمت الحضارة الحديثة للنساء من أنواع الزينة والطيب وأشكال الثياب، ورأت تبرُّج النساء، ماذا كانت رضي الله عنها قائلة؟!!.

● ثم قال الله تعالى: ﴿ وأقِمْنَ الصلاة، وأتينَ الزكاة، وأطِعْنَ الله ورسوله ﴾ بعد أن نهىٰ الله سبحانه أُمّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ عن الشر وأسبابه، أمرهنَّ جلَّ وعلا بالخير وأسبابه، أمرهنَّ بإقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده، وإيتاء الزكاة وفيها إحسان إلىٰ المخلوقين، ثم أمرهنّ بطاعة الله ورسوله طاعة كاملة مطلقة، ليبيِّن لهنّ أنَّ التكليف ليس محصوراً في الصلاة والزكاة فقط، بل عليهنَّ طاعة الله ورسوله في كل أمر من أمور الحياة، وقوله تعالىٰ: ﴿ وأطعنَ الله ورسوله ﴾ من قبيل عطف العام علىٰ الخاص لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة طاعة لله ورسوله ﷺ، وجاء ذكرهما أولاً علىٰ وجه الخصوص لأهميتهما ومكانتهما الكبيرة في الإسلام إذ هما أهم العبادات البدنية والمالية.

ولا شك أنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أعظم وسائل تربية النفس وتهذيبها وتزكيتها وتطهيرها، وقد جاءت هذه الأوامر الثلاثة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ في ختام الخطاب الثاني لنساء النبي ﷺ، ليربطَ الله سبحانه قلوب أُمهات المؤمنين بذكره وعبادته، ويرفعَ أبصارهنَّ إلىٰ الأفق الوضيء الذي يستمددْنَ منه النور والعَوْن حتىٰ يستطعْنَ القيام بأعباء المكانة الكبيرة التي بوّأهنّ الله إياها في بيت النبوّة الكريم ومقام الأمومة العظيم، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿ إنما يريد الله ليذهبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهِّرَكم تطهيراً ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

فكل هذه التوجيهات الكريمة التي سبق ذكرها من أجل طهارة ورِفعة أهـل البيت، ولا شكَّ أنَّ البيت المـراد من الآيـة الكـريمـة هـو بيت رسول الله ﷺ، وجاء ذكره في الآية الكريمة بدون وصف ولا إضافة تكريماً وتشريفاً لرسول الله ﷺ، كأن بيته عليه الصلاة والسلام هو البيت الواحد في هذا العالم المستحق لهذه الصفة، وقد جاء ذكر أهل البيت أيضاً في سورة هود في قوله تعالىٰ وهو يتحدّث عن نبيّه إبراهيم عليه وعلىٰ نبيّنا أفضل الصلاة والتسليم: ﴿ ولقد جاءتْ رسلُنا إبراهيمَ بالبُشرىٰ، قالوا سلاماً، قال سلامٌ، فما لبث أن جاء بعِجْل حَنِيذٍ ● فلما رأىٰ أيديَهم لا تصلُ إليه نَكِرَهم وأوجسَ منهم خِيفَة، قالوا: لا تَخف إنّا أُرسلنا إلى قوم لوط ● وامرأته قائمة فضحكَتْ فبشّرناها بإسحٰق ومِنْ وراء إسحٰق يعقوب ● قالت يا ويلتا أألِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بَعْلي شيخاً إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ ● قالوا أتعجبين من أمر الله؟! رَحْمَةُ الله وبركاته عليكم أهلَ البيت، إنه حميدٌ مجيدٌ ﴾[1].

وهذا يدلّ علىٰ أن المراد من أهل البيت، أهل بيت النبوّة الذي تمتد شجرته الكريمة عبر أعماق الزمان من عهد والد الأنبياء إبراهيم عليه وعلىٰ نبيّنا الصلاة والتسليم، إلىٰ خاتمهم وسيدهم سيدنا محمد ﷺ.

ولقد شرَّف الله سبحانه أُمهات المؤمنين رضي الله تعالىٰ عنهنّ وأكرمهنّ بالانتماء إلىٰ هذا البيت الكريم عندما تشرفن بالزواج من النبي ﷺ، فالآية نزلت بسببهنّ، والخطاب موجَّه إليهنَّ، وهذا نصٌّ في دخولهنّ رضي الله عنهنّ في أهل البيت، لأنهنَّ سبب نزول الآية، وسبب نزول داخل فيها قولاً واحداً كما قال ابن كثير رحمه الله.

وليس المراد أنّهنّ فقط دون غيرهنّ أهل البيت، فقد روىٰ ابن أبي حاتم عن العوّام بن حَوْشب عن ابن عمٍّ له قال: (دخلت مع أبي علىٰ عائشة رضي الله عنها فسألتها عن علي رضي الله عنه، فقالت: تسألني عن رجل

---

(١) الآيات ٦٩ ـ ٧٣ من سورة هود.

كان من أحبِّ الناس إلىٰ رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحبّ الناس إليه، لقد رأيتُ رسول الله ﷺ دعا عليّاً وفاطمة وحَسَناً وحُسيناً رضي الله عنهم فألقىٰ عليهم ثوباً فقال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي، فأذهبْ عنهم الرجسَ وطهِّرهم تطهيراً» قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول الله وأنا من أهل بيتك فقال ﷺ: «تنحَّي فإنك علىٰ خير»[1].

مَهْبِطُ الوَحْيِ

وختم الله سبحانه الخطاب الثاني لأُمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ بقوله الكريم: ﴿ واذكرنَ ما يُتلىٰ في بيوتكنّ من آياتِ الله والحكمة، إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾، فبيوتهنّ رضي الله عنهنّ مهبط الوحي ومنزل الحكمة. ومن هذه البيوت المتواضعة أشرق النور وعمّ الحبور، وإنها لنعمة عظيمة جليلة يكفي تذكيرهنَّ بها، ليعرفنَ فضل الله سبحانه عليهنّ ولطفه بهنّ رضي الله تعالىٰ عنهنّ.

قال ابن كثير رحمه الله: (قوله: ﴿ واذكرن ما يُتلىٰ في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة ﴾ أي اعملن بما يُنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ في بيوتكنّ من الكتاب والسنّة واذكرنَ هذه النعمة التي خُصِصتنَّ بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكنّ دون سائر الناس، وعائشة الصدِّيقة بنت الصدّيق رضي الله عنها أولاهنّ بهذه النعمة، فإنه لم ينزل علىٰ رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نصّ علىٰ ذلك صلوات الله وسلامه عليه)[2].

والحديث الذي أشار إليه ابن كثير رحمه الله، روته السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: (كان الناس يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة، فاجتمع صواحبي إلىٰ أُم سَلَمة، فقلْنَ: يا أُمَّ سَلَمة، والله إنَّ الناس يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة، وإنّا نريد الخير كما تريد عائشة، فمُري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان أو حيث ما دار، قالت: فذكرت

---

(١) أخرجه الترمذي والبزار.

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير.

ذلك أُم سَلَمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عنّي، فلما عاد إليّ ذكرتُ له ذلك، فأعرض عنّي، فلما كان في الثالثة ذكرت له، فقال: «يا أُمّ سَلَمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنّ غيرها»[1].

والحديث يدلّ على أنّه ﷺ كان يسوِّي بين أُمّهات المؤمنين في المعاملة، ويقسم لهنّ في البيتوتة، فيبيت عند كل واحدة منهنّ ليلة، ويُقرِع بينهنّ إذا أراد سَفَراً ليختار التي تصحبه منهنّ، مع أن القِسمة لهنّ لم تكن واجبة عليه ﷺ بقوله تعالىٰ: ﴿ تُرجي من تشاء منهنّ وتؤوي إليك مَنْ تشاء، ومَنْ ابتغيتَ ممَّن عزلتَ فلا جُناح عليك، ذلك أدنىٰ أن تقرَّ أعينهنَّ، ولا يحزنَّ، ويرضين بما آتيتهنَّ كلهنَّ، والله يعلم ما في قلوبكم، وكان الله عليماً حليماً ﴾[2].

فقد وضع الله سبحانه وتعالىٰ واجب القسم بين الزوجات الذي أوجبه علىٰ غيره ﷺ، فإن شاء ﷺ قسَم وإن شاء لم يقسِم، وكان ﷺ يقسِم لهنَّ اختياراً منه، قالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يستأذن في يوم المرأة منّا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿ ترجي مَن تشاء منهنّ وتؤوي إليك مَنْ تشاء، ومن ابتغيتَ ممَّن عزلت فلا جُناح عليك ﴾ فقلتُ لها: ما كنتِ تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذلك إليّ فإني لا أُريد يا رسول الله أن أُوثر عليك أحداً)[3].

ولما مرض ﷺ مرض الوفاة استأذن أُمهات المؤمنين أن يأذنَّ له ليمرَّض في بيت السيدة عائشة رضي الله عنهنّ جميعاً.

وكلّ هذا يدلّ علىٰ حسن معاملة النبي ﷺ لهنَّ ولطفه بهنَّ، كما يدلّ علىٰ تكريم الله سبحانه لأُمّهات المؤمنين حيث لم يوجب القسمة علىٰ النبي ﷺ، حتىٰ لا يحزنَّ وتقرّ أعينهنّ ويفرحن عندما يرينَ رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح.

(٢) الآية ٥١ من سورة الأحزاب.

(٣) البخاري في الصحيح.

يقسّم لهنّ علىٰ سبيل الاختيار والتكريم لا علىٰ سبيل الوجوب.

ولهذا كانت بيوتهنَّ رضي الله تعالىٰ عنهنّ مهابط للوحي لأن النبي ﷺ كان يدور عليهنَّ ويقسّم لهنَّ، وظلَّت هذه البيوت مهابط الوحي ومنازل الهدىٰ مدىٰ حياته عليه الصلاة والسلام، فلما انتقل ﷺ إلىٰ جوار ربّه، أصبحت هذه البيوت مثابة للناس يقصدونها من سائر البلاد، متعلمين مستفتين، أو ملتجئين مستغيثين، فكانت تهدي الحائر، وتعلِّم الجاهل، وتحمي الملتجأ، وتنجد المستغيث.

وهذا من حكمة الله سبحانه ولطفه ورحمته بهذه الأمة أن جعل بيوت أُمهات المؤمنين رضي الله تعالىٰ عنهنّ مدارس لنشر العلم والسنّة، بقي فيها من أزواج صاحب الرسالة ﷺ من تُعيد سيرته وتذكّر الناس بسنّته علىٰ مدىٰ خمسين عاماً بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، كأنَّ الوحي لم ينقطع، وكأنَّ الناس من أنواره في شمس لا يلمّ بها أُفول.

وهذا من حِكَم وفوائد تعدّد زوجات رسول الله ﷺ، فقد كان لهنَّ رضي الله عنهنّ دَوْر كبير في حفظ السنّة وتعليمها للناس، ومَنْ أراد التوسّع في هذا الموضوع فليقرأ كتابي عن السيدة عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أُمّ المؤمنين وعالِمة نساء المسلمين[1].

(١) الكتاب من مطبوعات دار القلم بدمشق.

خَاتِمَة

وبعد: فهذا ما فتح الله سبحانه عليَّ في موضوع سورة الأحزاب، فله سبحانه الحمد والشكر، فإن وُفِّقت فبفضل الله سبحانه، وإن أخطأتُ فمن نفسي، وأستغفره سبحانه، وأسأله أن يستر عيوبي، ويغفر ذنوبي، وأن يثبِّتني على دينه، ويستعملني في طاعته، ويُكرمني بالتمسّك بسنّة نبيّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

مـــراجع الكتاب

١ ـ كتب السُّنَّة.

٢ ـ كتب التفسير الآتية:

ـ تفسير ابن كثير.

ـ مختصر تفسير ابن كثير للصابوني.

ـ صفوة التفاسير للصابوني.

ـ تفسير الخازن.

ـ تفسير أبي السعود.

ـ الكشَّاف للزمخشري.

ـ تفسير النسفي.

ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن).

ـ أضواء البيان للشنقيطي.

ـ تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير).

ـ تفسير الشوكاني (فتح القدير).

ـ الصاوي علي الجلالين.

ـ في ظلال القرآن لسيد قطب.

٣ ـ كتب مختلفة:

ـ سيرة ابن هشام.

ـ إنارة الدجى في مغازي خير الورى.

ـ حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدار المختار).

ـ السيدة عائشة أُمّ المؤمنين وعالمة نساء الإسلام للمؤلف.

ـ عبد الله بن عباس الإمام البحر عالم العصر للمؤلف.

فَهْرَسُ المَوضُوعَات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول:	٧
تمهيد	٩
التكليف والتشريف	١١
التقوىٰ والتوكل واتباع الوحي	١٥
النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم	٢٠
عموم ولاية النبي ﷺ وشمولها	٢٢
التسليم لحكمه ﷺ	٢٤
طاعته ﷺ	٢٦
محبته ﷺ	٢٨
الصلاة والسلام عليه ﷺ	٣٢
الحذر من إيذاء النبي ﷺ	٣٦
الأسوة الحسنة	٤٤
نبي الله ﷺ	٥٥
رسول الله ﷺ	٦٠
خاتم النبيّين ﷺ	٦٦
النبي الشاهد ﷺ	٧٠
النبي المبشر ﷺ	٧٣

النبي النذير ﷺ ٧٦
الداعي إلى الله بإذنه ٧٨
السراج المنير ﷺ ٨١
الفصل الثاني: أزواج النبي ﷺ ٨٥
تمهيد ٨٧
النبي القائد ﷺ ٨٩
النبي ﷺ خير الأزواج ٩١
من القديم والحديث ٩٢
زمن التخيير ٩٤
سبب التخيير ٩٧
الاختيار ١٠١
تكريم الله سبحانه لأزواج النبي ﷺ
التكريم الأول: أمهات المؤمنين ١٠٣
التكريم الثاني: ١٠٥
النبي ﷺ والواهبات أنفسهن له ١٠٦
التكريم الثالث: ١١١
المرأة والعمل ١١٧
تبرج النساء ١١٨
صلاة المرأة في المسجد ١٢١
أهل البيت ١٢٣
مهبط الوحي ١٢٤
الخاتمة ١٢٧
مراجع الكتاب ١٢٨
الفهرس ١٢٩

الكتاب التالي في هذه السلسلة

سيصدر قريباً إن شاء الله

وهـــو

المعجزة والإعجاز في سورة النمل

من منشورات دار القلم بدمشق

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

تأليف

محمد الصادق عرجون

دراسة قيمة وعميقة للسيرة النبوية، ومنهج جديد متفرد في دراسة السيرة بعامة والتاريخ الإسلامي بخاصة، تقع في أربع مجلدات كبار.

* * *

حياة الصحابة

تأليف

محمد يوسف الكاندهلوي

حققه

الشيخ نايف العباس - ومحمد علي دولة

طبعتنا هي الطبعة الوحيدة المحققة المفهرسة من بين طبعات هذا الكتاب.

اطلب الكتاب في آخر طبعاته وقد صدرت في ثلاث مجلدات

صدر حديثاً عن دار القلم

سر صناعة الإعراب

تأليف

إمام العربية أبي الفتح عثمان بن جني

المتوفى سنة ٣٩٢ هـ

دراسة وتحقيق

الدكتور حسن هنداوي

الأستاذ المساعد في كلية العلوم العربية والاجتماعية

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

- القصيم -

ويسعد دار القلم أن تنال شرف تقديم هذا الكتاب العظيم
وإخراجه كاملاً ومحققاً للمرة الأولى في عالم النشر والطباعة

في سلسلة أعداء الإسلام

للكاتب المسلم العلامة عبد الرحمن حبنكة الميداني

صدر منهـا:

١ ـ مكايد يهودية عبر التاريخ (مجلد).

٢ ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم (مجلد).

٣ ـ أجنحة المكر الثلاثة (مجلد).

٤ ـ الكيد الأحمر (مجلد).

٥ ـ غزو في الصميم (مجلد).

٦ ـ كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة (مجلد).